

الدكتورة غراء حسين مهنا

مِرآة الخَير

وقصص أخرى

مكتبة لبنان ناشرون الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

مِرآة الخَير

وقصص أخرى

إشراف : وجدي رزق غالي

١٠ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر
مكتبة لبنان ناشرون
زقاق البلاط ص.ب : ٩٢٣٢ - ١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

رقم الايداع ٢٠٠٦/١٣٥١٢

الترقيم الدولي ISBN 977 - 16 - 1049 - X

رسوم : محمد نبيل عبد العزيز

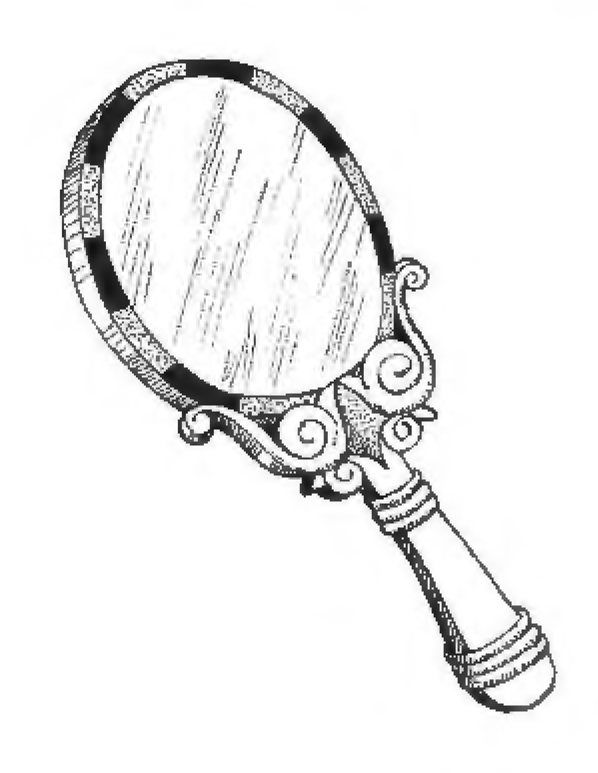
طبع في مطابع الأهرام التجارية - قليوب (طريق مصر - الإسكندرية الزراعي)



مِرآة الخَير

وقصص أخرى

الدكتورة غراء حسين مهنا



مكتبة لبنان ناشرون   الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

مِرآةُ الخَيْر

كانَ سَعيدًا في حَياتِهِ، فَقَدْ بَسَطَ اللهُ لَهُ في الرِّزْقِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ مِنْ نِعَمِهِ؛ فَقَدْ أَفاءَ عَلَيْهِ مِنَ المالِ والبَنينَ والبَناتِ ما يَكْفُلُ لَهُ حَياةً رَغْدَةً، وعيشَةً هَنِيَّةً. يَعيشُ في مَنْزِلٍ كَبيرٍ تُحيطُ بِهِ حَديقَةٌ غَنّاءُ كَأَنَّها رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الجَنَّةِ، بِها مِنَ الفاكِهَةِ وَالأَعْنابِ والزُّهورِ والرَّيْحانِ، ما تَطيبُ لَهُ النَّفْسُ وتُسَرُّ لَهُ العَيْنُ. كَما كانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ وَفِيَّةٌ، وعَمَلٌ يُحِبُّهُ ويُتْقِنُهُ فَهُوَ مِنْ كِبارِ تُجّارِ الأَقْمِشَةِ في بَلْدَتِهِ.

ولَكِنْ كانَ هُناكَ شَيْءٌ واحِدٌ يُنَغِّصُ عَلَيْهِ حَياتَهُ، ويُقْلِقُهُ في مَضْجَعِهِ، ويَشْغَلُ بالَهُ، كانَ ذَلِكَ سِرًّا لا يُطْلِعُ عَلَيْهِ أَحَدًا، لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَعْتَرِفَ بِهِ لِمَخْلوقٍ، وهُوَ أَنَّهُ عِنْدَما يَنْظُرُ في المِرْآةِ لا يَرى صورَتَهُ أَبَدًا!

كانَ السَّيِّدُ «عِمْرانُ»، وهَذا اسْمُهُ، يَضَعُ في جَيْبِ قُفْطانِهِ مِرآةً صَغيرَةً، يَتَطَلَّعُ إلَيْها كُلَّما سَنَحَتْ لَهُ الفُرْصَةُ ووَجَدَ نفْسَهُ وَحيدًا، فَلا يَرى بِها أَيَّةَ صورَةٍ وكَأَنَّها صَفْحَةٌ بَيْضاءُ ناصِعَةُ البَياضِ لامِعَةٌ. كانَ لا يَدْري لِذَلِكَ سَبَبًا ويَخْشَى إِنْ أَخْبَرَ بِهِ أَحَدًا مِنْ عائِلَتِهِ أَوْ أَقْرانِهِ أَنْ يَتَّهِموهُ بِالجُنونِ.

وبَيْنَما هُوَ جالِسٌ، ذاتَ يَوْمٍ، أَمامَ دُكّانِهِ يَقْرَأُ في



كتابٍ شاهَدَ رَجُلًا قَوِيَّ البِنْيَةِ، ضَخْمَ الجُثَّةِ يَضْرِبُ شَيْخًا عَجوزًا ويُحاوِلُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ حِمارَهُ بِالقُوَّةِ، فَحاوَلَ أَنْ يَتَدَخَّلَ ويَمْنَعَ الأَذى عَنِ الشَّيْخِ ولَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا.

وفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي، وبَيْنَما هُوَ جالِسٌ كَعادَتِهِ أَمامَ دُكّانِهِ، اقْتَرَبَ مِنْهُ الشَّيْخُ وأَلْقى عَلَيْهِ تَحِيَّةَ الصَّباحِ ثُمَّ بادَرَهُ قائِلًا: «سَيِّدي، لَقَدْ رَأَيْتَ بِالأَمْسِ ما صَنَعَهُ بي ذَلِكَ الوَحْشُ الآدَمِيُّ، كَما رَأَيْتَهُ يَأْخُذُ حِماري عَنْوَةً. وهَذا الحِمارُ هُوَ كُلُّ ما أَمْلِكُ بِجانِبِ قِطْعَةِ الأَرْضِ الصَّغيرَةِ الَّتي أَمْتَلِكُها، فَأَحْيانًا أَرْكَبُهُ فَيُخَفِّفُ عَنّي مَشَقَّةَ السَّيْرِ، وأَحْيانًا يُعينُني في زِراعَةِ الأَرْضِ، ويَحْمِلُ لي المَحْصولَ لأَبيعَهُ لِلتُّجّارِ، وهُوَ رَفيقي وَمُؤْنِسي في هَذِهِ الحَياةِ بَعْدَ أَنْ رَحَلَتْ زَوْجَتي، ولَيْسَ لي وَلَدٌ يُعينُني في هَذِهِ الحَياةِ... فَهَلْ لَكَ يا سَيِّدي، أَنْ تَشْهَدَ غَدًا أَمامَ القاضي في المَحْكَمَةِ بِما رَأَتْهُ عَيْناكَ؟»

«سَأَفْعَلُ أَيُّها الشَّيْخُ الطَّيِّبُ.» قالَها عِمْرانُ بِلا تَرَدُّدٍ فَوَدَّعَهُ الشَّيْخُ داعِيًا لَهُ بِالخَيْرِ كُلِّهِ.

وبَعْدَ انْصِرافِ الشَّيْخِ، أَخَذَ عِمْرانُ يُفَكِّرُ في الأَمْرِ، وَيَتَساءَلُ في نَفْسِهِ إنْ كانَ قَدْ تَسَرَّعَ في الوَعْدِ الَّذي قَطَعَهُ عَلى نَفْسِهِ؛ لأَنَّ الرَّجُلَ الضَّخْمَ الَّذي رَآهُ لَنْ يَتْرُكَهُ وشَأْنَهُ، ورُبَّما يَضْرِبُهُ أَوْ يَحْرُقُ دُكّانَهُ أَوْ يُؤْذي أَحَدًا مِنْ أَوْلادِهِ أَوْ... أَوْ... أَوْ... فَكَّرَ عِمْرانُ في الكَثيرِ مِنَ الاحْتِمالاتِ، وكانَ يَبْدو مُتَرَدِّدًا أَحْيانًا، عازِمًا أَحْيانًا أُخْرى عَلى الوَفاءِ بِوَعْدِهِ.

قَضى عِمْرانُ لَيْلَتَهُ ساهِرًا، قَلِقًا، لا يَعْرِفُ ماذا يَفْعَلُ وعَلى أَيِّ شَيْءٍ يَسْتَقِرُّ رَأْيُهُ. وفي الصَّباحِ، ارْتَدى مَلابِسَهُ، وتَناوَلَ إِفْطارَهُ وهُوَ شارِدُ الذِّهْنِ، ولَمْ يَشْغَلْ بالَهُ عِنْدَما لَمْ تَظْهَرْ صورَتُهُ في المِرْآةِ كَالعادَةِ، ولَمْ يَكْتَرِثْ كَثيرًا لِذَلِكَ.

ذَهَبَ عِمْرانُ إلى المَحْكَمَةِ وقَصَّ عَلى القاضي ما

شاهَدَتْ عَيْناهُ، وما رَأى بِالْفِعْلِ دونَ زِيادَةٍ أَوْ نُقْصانٍ.

واسْتَعادَ الشَّيْخُ حِمارَهُ، وتَمَّ حَبْسُ السّارِقِ، وعادَ عِمْرانُ إلى دُكّانِهِ، وانْشَغَلَ في عَمَلِهِ سَعيدًا؛ لأَنَّهُ اسْتَطاعَ مُساعَدَةَ هَذا الشَّيْخِ الطَّيِّب. وفي آخِرِ النَّهارِ عادَ إلى مَنْزِلِهِ، وذَهَبَ إلى غُرْفَتِهِ لِيَنامَ.

وقَبْلَ أَنْ يَسْتَغرِقَ في النَّوْمِ، تَذَكَّرَ أَنَّهُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ لَمْ يَنْظُرْ إلى المِرْآةِ مُنْذُ الصَّباحِ الباكِرِ، فَقَدْ شَغَلَتْهُ عَنْها أَحْداثُ هَذا اليَوْمِ، فَنَهَضَ مِنْ سَريرِهِ، وأَخْرَجَ المِرْآةَ مِنْ جَيْبِ قُفْطانِهِ، وكَمْ كانَتْ دَهْشَتُهُ حينَما رَأى صورَةَ عَيْنَيْهِ في المِرْآةِ: العَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ شاهَدَتا ما حَدَثَ ولَمْ تُنْكِرُهُ.

لَمْ تَعُدِ المِرْآةُ مُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ صَفْحَةً بَيْضاءَ لامِعَةً، ولَكِنَّها أَصْبَحَتْ تُبْرِزُ صورَةَ عَيْنَيْنِ واسِعَتَيْنِ:

عَيْنَيْ عِمْرانَ.

كانَ عِمْرانُ دَهِشًا، حائِرًا، لا يَعْرِفُ لِذَلِكَ سَبَبًا، ولا يَسْتَطيعُ أَنْ يُفْضِيَ بِهِ لأَحَدٍ. وعادَ لِمُمارَسَةِ حَياتِهِ اليَوْمِيَّةِ، يَتَطَلَّعُ إلى المِرْآةِ كُلَّما سَنَحَتْ لَهُ الفُرْصَةُ فَلا يَرى سِوى العَيْنَيْنِ.

وذاتَ مَساءٍ، وبَيْنَما هُوَ جالِسٌ بَيْنَ أَوْلادِهِ سَمِعَ صِياحًا وأَصْواتًا عالِيَةً وصُراخًا، فَخَرَجَ إلى الشُّرْفَةِ يَسْتَطْلِعُ الأَمْرَ. وما كادَ يَقِفُ بِالشُّرْفَةِ حَتّى نادى عَلَيْهِ عَسْرانُ جارُهُ قائِلًا: «يا عِمْرانُ، تَعالَ أَرْجوكَ، أَسْرِعْ بِاللهِ عَلَيْكَ، أَسْرِعْ.»

خَرَجَ عِمْرانُ قاصِدًا مَنْزِلَ جارِهِ عَسْرانَ فَوَجَدَهُ ثائِرًا، وجَسَدُهُ يَرْتَعِدُ وعَيْناهُ زائِغَتانِ، ويُتَمْتِمُ قائِلًا بِصَوْتٍ ضَعيفٍ: «لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بِاللهِ... لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بِاللهِ.» هَدَّأَ عِمْرانُ مِنْ رَوْعِ جارِهِ، وطَيَّبَ خاطِرَهُ ثُمَّ سَأَلَهُ عَمّا حَدَثَ.

قالَ عَسْرانُ بِصَوْتٍ أَجَشَّ: «هَذِهِ الدُّنْيا فانِيَةٌ وَبِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ يَعْتَقِدُ النّاسُ أَنَّهُمْ سَيُخَلَّدونَ فيها إِلى أَبَدِ الآبِدينَ.

«تَعْرِفُ، يا صَديقي، أَنَّ أَخي قَدْ غَرَّهُ طَمَعُ الدُّنْيا، ويُريدُ أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلى مَنْزِلي الَّذي أُقيمُ فيهِ مَعَ أَوْلادي، ولا أَمْلِكُ مِنَ الدُّنْيا غَيْرَهُ.

«أَنْتَ تَعْلَمُ جَيِّدًا أَنَّ والِدي رَحِمَهُ اللهُ كَتَبَ لي هَذا المَنْزِلَ قَبْلَ وَفاتِهِ، وكَتَبَ لأَخي المَنْزِلَ الرّيفِيَّ وقِطْعَةَ الأَرْضِ التي تُحيطَ بِهِ.

«لَقَدْ حَضَرْتَ هَذِهِ الواقِعَةَ، فَقَدْ كُنْتَ صَديقًا لِوالِدي. ورَغْمَ فارِقِ السِّنِّ بَيْنَكُما، كانَ يُحِبُّكَ ويَعْتَزُّ بِصَداقَتِكَ.»

«نَعَمْ كُلُّ ما تَقولُهُ هُوَ الصِّدْقُ بِعَيْنِهِ.»

«يُريدُ أَخي الآنَ أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلى هَذا المَنْزِلِ، بَعْدَ أَنْ قامَ بِتَزْويرِ وَصِيَّةِ والِدِنا، وأَنْ يُلْقِيَ بي أَنا وأَوْلادي

فِي الشّارِعِ لا تَأْخُذُهُ بِنا شَفَقَةٌ ولا رَحْمَةٌ، ولا يُقيمُ وَزْنًا لِصِلَةِ الرَّحِمِ. إِنَّهُ أَمْرٌ لا يُعْقَلُ.»

«اِهْدَأْ، يا صاحِبي، هذا لَنْ يَحْدُثَ، ولَنْ أَتْرُكَهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ. اِسْتَدْعِهِ غَدًا في المَساءِ وسَأَتَوَلّى الأَمْرَ بِنَفْسي، فَصَداقَتي بِالمَرْحومِ والِدِكُما تُحَتِّمُ عَلَيَّ أَنْ أَنْطِقَ بِشَهادَةِ الحَقِّ. لا تَشْغَلْ بالَكَ. وإلى اللِّقاء غَدًا في السّابِعَةِ مَساءً بَعْدَ أَنْ أَعودَ مِنْ عَمَلي.»

كانَ عِمْرانُ في مَنْزِلِ عَسْرانَ في تَمامِ السّاعَةِ السّابِعَةِ، ووَجَدَ مَعَهُ أَخاهُ فَبادَرَهُ قائِلًا:

«اسْتَمِعْ إِلَيَّ جَيِّدًا، لَنْ أَتْرُكَكَ تَفْعَلُ ما زَيَّنَهُ لَكَ الشَّيْطانُ. لَقَدْ كُنْتُ صَديقًا لِوالِدِكَ وسَأَقِفُ مَعَ عَسْرانَ إِلى النِّهايَةِ، ولَنْ أَكْتُمَ شَهادَتي بِالحَقِّ.

«إِنَّ هَذا المَنْزِلَ مِلْكٌ لأَخيكَ ولَنْ أَسْمَحَ بِغَيْرِ ذَلِكَ، فَاخْرُجْ مِنْ هُنا فَوْرًا، ولا تَعُدْ إلا عِنْدَما تَعْرِفُ الحَقَّ مِنَ الباطِلِ، وتَعودُ إِلَى رُشْدِكَ وصَوابِكَ، اُخْرُجْ حالًا.»

كانَ عِمْرانُ حاسِمًا في كَلامِهِ، فَخَرَجَ الأَخُ مُتَلَعْثِمًا، لا يَكادُ يَرى أَمامَهُ وَهُوَ يَتَعَثَّرُ في خُطُواتِهِ. وشَكَرَ عَسْرانُ جارَهُ داعِيًا لَهُ بِالصِّحَّةِ والسَّعادَةِ لِوُقوفِهِ بِجانِبِهِ.

وعِنْدَما نَظَرَ عِمْرانُ إِلى مِرآتِهِ في المَساءِ، رآها تَعْكِسُ صورَةَ فَمِهِ، ذَلِكَ الفَمُ الَّذي نَطَقَ بِكَلِمَةِ الحَقِّ.

ومُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ أَصْبَحَتِ المِرآةُ تَعْكِسُ صُورَةَ عَيْنَيْنِ وفَمٍ: عَيْنَيْ عِمْرانَ وفَمِهِ.



مَضَتِ الأَيّامُ والشُّهورُ والحالُ هِيَ الحالُ، عِمْرانُ مَشْغولٌ بِتِجارَتِهِ الَّتي أَخَذَتْ تَنْمو وتَتَقَدَّمُ وبِثَرائِهِ الَّذي يَزْدادُ.

وذاتَ يَوْمٍ، قَرَّرَ عِمْرانُ أَنْ يَأْخُذَ إجازَةً مِنْ عَمَلِهِ، فَهُوَ يَعْمَلُ مُنْذُ سَنَواتٍ دونَ كَلَلٍ ولَمْ يَسْتَمْتِعْ بِإِجازَةٍ قَطُّ. قَرَّرَ عِمْرانُ أَنْ يَصْحَبَ أَوْلادَهُ وزَوْجَتَهُ في رِحْلَةٍ إلى الحَدائِقِ الغَنّاءِ الَّتي كانَ يَسْمَعُ عَنْها بِجِوارِ مَدْخَلِ البَلْدَةِ والَّتي كانَ النّاسُ يَتَغَنَّونَ بِجَمالِها ومَناظِرِها الخَلابَةِ، يَسْتَريحُ فيها مِنَ العمَلِ، ويُرَفِّهُ عَنْ زَوْجَتِهِ وأَوْلادِهِ، ويَقْضونَ مَعًا يَوْمًا جَميلًا وَسْطَ الطَّبيعَةِ السّاحِرَةِ.

أَعَدَّتِ الزَّوْجَةُ الطَّعامَ، واهْتَمَّ الأَوْلادُ بِتَوْفيرِ ما يَرْكَبونَهُ مِنْ خُيولٍ وَبِغالٍ، وتَوَجَّهَ الجَميعُ مُنْذُ الصَّباحِ الباكِرِ إلى الحَدائِقِ الغَنّاءِ الَّتي سَمِعوا كَثيرًا عَنْها ولَمْ يَزوروها.

بَعْدَ ساعَةٍ مِنَ الزَّمَنِ، رَأَوْا ما لَمْ تَرَهُ عُيونُهُمْ مِنْ قَبْلُ: خُضْرَةً ساحِرَةً وزُهورًا يانِعَةً وسَماءً صافِيَةً، ومِياهًا زَرْقاءَ تَسْحَرُ اللُّبَّ وتَسُرُّ العَيْنَ وَتُطَمْئِنُ القَلْبَ.

قَضَوْا يَوْمًا جميلًا لا يُنْسَى، يَتَحَدَّثونَ ويَتَضاحَكونَ، يَأْكُلونَ وَيَشْرَبونَ، مُسْتَمْتِعينَ بِوَقْتِهِمْ، مَسْرورينَ بِاجْتِماعِهِمْ مَعًا خارِجَ المَنْزِلِ.

بَدَأَ اللَّيْلُ يَسْدُلُ أَسْتارَهُ عَلَى المَكانِ، فَقَدِ اخْتَفَتِ الشَّمْسُ، وَبَدَأَ البَرْدُ يَتَسَلَّلُ إِلَى الأَجْسادِ. وَبَيْنَما هُمْ يَجْمَعونَ بَقايا الطَّعامِ وَالشَّرابِ اسْتِعْدادًا لِلرَّحيلِ، سَمِعوا بُكاءَ طِفْلٍ صَغيرٍ. أَخَذوا يُفَتِّشونَ عَنْ مَصْدَرِ هَذا الصَّوْتِ هُنا وَهُناكَ إِلَى أَنْ وَجَدوا طِفْلاً صَغيرًا في حَوالَي السّابِعَةِ مِنْ عُمْرِهِ يَبْكي بِحُرْقَةٍ. وَلمّا سَأَلوهُ عَنْ سِرِّ بُكائِهِ تَبَيَّنَ أَنَّهُ يَتيمٌ لا أَهْلَ لَهُ وَلا دارَ؛ فَقَدِ اِنْهارَ المَنْزِلُ الَّذي كانَ يَسْكُنُ فيهِ مَعَ أَهْلِهِ وَهَلكوا جَميعًا وَنَجا هُوَ، وَلَمْ يَعُدْ لَهُ أَحَدٌ في هَذِهِ الدُّنْيا، فَأَقارِبُهُ لا يَعْرِفُ لَهُمْ طَريقًا، وَلَيْسَ لَهُمْ أَصْدِقاءُ في هَذِهِ البَلْدَةِ.

تَأَثَّرَ عِمْرانُ كَثيرًا بِحالِ هَذا الصَّبِيِّ وَاصْطَحَبَهُ مَعَهُ إِلَى المَنْزِلِ، وَأَطْعَمَهُ وَجَعَلَهُ يَنامُ مَعَ أَبْنائِهِ، ثُمَّ اخْتَلَى

بِزَوْجَتِهِ وقالَ لَها:

«لَقَدْ رَزَقَنا اللهُ هَذا المَساءَ بِابْنٍ جَديدٍ، فَأَحْسِني مُعامَلَتَهُ كَأَنَّهُ واحِدٌ مِنَ الأَبْناءِ ولا تَقْسي عَلَيْهِ يَوْمًا، وكوني لَهُ نِعْمَ الأُمِّ والأَهْلِ، فَأنا واثِقٌ تَمامَ الثِّقَةِ أَنَّ اللهَ جَعَلَهُ في طَريقِنا حَتّى نَكْفُلَهُ ونَعْتَنِيَ بِهِ ونكونَ لَهُ سَنَدًا في هَذِهِ الحَياةِ حَتّى يَكْبُرَ.»

وافَقَتِ الزَّوْجَةُ الطَّيِّبَةُ زَوْجَها عَلى هَذا الرَّأْيِ ووَعَدَتْهُ بِالعِنايَةِ بِالصَّبِيِّ والسَّهَرِ عَلى راحَتِهِ كَأَنَّهُ ابْنٌ مِنْ أَبْنائِها.

وعِنْدَما ذَهَبَ عِمْرانُ لِيَنامَ كانَ سَعيدًا بِهَذا اليَوْمِ الجَميلِ، مُطْمَئِنَّ البالِ لِلقَرارِ الَّذي اتَّخَذَهُ بِشَأْنِ الصَّبِيِّ، قَريرَ العَيْنِ بِما صَنَعَ.

وقَبْلَ أَنْ يَنامُ، كَعادَتِهِ كُلَّ مَساءٍ، تَطَلَّعَ إلى مِرآتِهِ، ولَكِنْ هَذِهِ المَرَّةَ كانَتِ المِرآةُ تَعْكِسُ وَجْهَهُ كامِلًا.

الوَصِيَّةُ

كانَ عائِدًا إِلى مَنْزِلِهِ في سُكونِ اللَّيْلِ بَعْدَ يَوْمٍ شاقٍّ، بَحَثَ فيهِ عَنْ عَمَلٍ يَقْتاتُ مِنْهُ دونَ جَدْوى.

كانَ مُسْتَغْرِقًا في التَّفْكيرِ في حالِهِ، يائِسًا ممّا وَصَلَ إِلَيْهِ هَذا الحالُ، جائِعًا فَهُوَ لَمْ يَأْكُلْ مُنْذُ الصَّباحِ الباكِرِ. وبَيْنَما هُوَ مُسْتَغْرِقٌ في تَأَمُّلاتِهِ ومَأْساتِهِ، اصْطَدَمَتْ قَدَمُهُ بِشَيْءٍ صُلْبٍ، فَتَحَسَّسَهُ في ظَلامِ اللَّيْلِ فَإِذا هُوَ صُنْدوقٌ خَشَبِيٌّ صَغيرٌ وَقَدْ أُغْلِقَ بِقُفْلٍ كَبيرٍ غَليظ. وعِنْدَما هَمَّ بِإِلْقائِهِ بَعيدًا، خَطَرَتْ لَهُ فِكْرَةٌ أَنْ يَأْخُذَهُ مَعَهُ ويَنْظُرَ ما بِهِ فَرُبَّما كانَ يُخْفي سِرًّا أَوْ يَحْوي شَيْئًا ثَمينًا .

وفي المَنْزِلِ، حاولَ أَنْ يَفْتَحَهُ، ولَكِنْ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ ذَلِكَ. مَرَّتِ السّاعاتُ وهُوَ يُحاوِلُ ويُحاوِلُ إلى أَنْ

تَمَكَّنَ مَنْ فَتْحِهِ بَعْدَ مَشَقَّةٍ وهُوَ يَتَصَبَّبُ عَرَقًا. ولِدَهْشَتِهِ وَجَدَ بِهِ وَرَقَةً صَفْراءَ بالِيَةً، أَخَذَ يَقْرَؤُها على ضَوْءِ المِصْباحِ الوَحيدِ بِالحُجْرَةِ الَّتي يُقيمُ بِها: «كُتِبَتْ هَذِهِ الوَرَقَةُ مُنْذُ مِئاتِ السِّنينَ ولَمْ يَعْثُرْ عَلَيْها أَحَدٌ، أَنْتَ أَوَّلُ مَنْ يَفْتَحُها ولَكِنْ حَذارِ، اقْرَأْها بِتَمَعُّنٍ واحْفَظْ ما بِها في ذاكِرَتِكَ فَسَتَزولَ كَلِماتُها بِمُجَرَّدِ أَنْ تُتِمَّ قِراءَتَها.»

«انْظُرْ إِلى هَذِهِ الخَريطَةِ وَهَذا العُنْوانِ واحْفَظْهُما جَيِّدًا، فَإِنَّكَ إِذا اسْتَطَعْتَ الوُصولَ إِلى هَذا المَكانِ سَتَجِدُ الخَيْرَ كُلَّهُ، ولَكِنْ حَذارِ فَهَذِهِ الوَرَقَةُ قَدْ تَجْلِبُ لَكَ أَيْضًا الشَّرَّ كُلَّه.»

ما إِنْ أَتَمَّ حَمْدانُ قِراءَةَ الوَرَقَةِ حَتّى زالَتْ سُطورُها ولَمْ يَعُدْ بِها حَرْفٌ واحِدٌ، ثُمَّ اخْتَفى الصُّنْدوقُ الخَشَبِيُّ الَّذي كانَ قَدْ وَضَعَهُ بِجِوارِهِ عَلى المائِدَةِ.

أَخَذَ حَمْدانُ يُرَدِّدُ في ذُهولٍ ودَهْشَةٍ: «الخَيْرُ كُلُّهُ والشَّرُّ كُلُّهُ. ما مَعْنى ذَلِكَ؟ وَأَيُّ خَيْرٍ هَذا وَأَيُّ شَرٍّ؟

أَهُوَ لُغْزٌ مِنَ الأَلْغازِ، أَمْ خُدْعَةٌ مِنَ الخُدَعِ؟!»

لَمْ يَسْتَطِعْ حَمْدانُ النَّوْمَ، ولَمْ يَسْتَطِعِ الانْتِظارَ حَتّى شُروقِ الشَّمْسِ فَقَدْ عَقَدَ العَزْمَ عَلى الوُصولِ إِلى المَكانِ الَّذي أَشارَتْ إِلَيْهِ الوَرَقَةُ، وكانَ يَخْشى إِنْ نامَ أَوِ انْتَظَرَ طُلوعَ الصَّباحِ أَنْ يَنْسى ما بِها فَقَدْ حَفِظَهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ وأَصْبَحَ مَنْقوشًا في ذاكِرَتِهِ.

خَرَجَ حَمْدانُ مِنَ المَنْزِلِ وابْتَلَعَهُ ظَلامُ اللَّيْلِ، وتَحَمَّلَ الكَثيرَ مِنَ المَشَقَّةِ والجُهْدِ حَتّى بَلَغَ المَكانَ المَنْشودَ، وأَخْرَجَ الكَنْزَ مِنْ مَكانِهِ.

تَبَدَّلَ حالُ حَمْدانَ مِنْ فَقْرٍ إِلى غِنًى، ومِنْ جوعٍ

إِلى شِبَعٍ، وأَصْبَحَ حَمْدانُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ أَكْبَرِ أَثرياءِ البَلَدِ، وصاحِبَ نُفوذٍ وجاهٍ، إذا أَمَرَ أَطاعَهُ الجَميعُ وتَسابَقوا عَلى خِدْمَتِهِ، وإذا ضَحِكَ ضَحِكَتِ الدُّنْيا وأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ، وإذا غَضِبَ تَكَدَّرَ النّاسُ وتَأَزَّمَ الأَمْرُ.

تَزَوَّجَ حَمْدانُ وصارَ لَهُ مِنَ البَنينَ اثْنانِ ومِنَ البَناتِ بِنْتانِ جَميلَتانِ، وبَعْدَ مُرورِ السِّنينَ نَجَحَ الوَلَدانِ في حَياتِهِما وتَسابَقَ النّاسُ في طَلَبِ الزَّواجِ بِالبِنْتَيْنِ.

عاشَ حَمْدانُ سَعيدًا مُنَعَّمًا، لَدَيْهِ مِنَ النِّعَمِ الكَثيرُ، ومِنَ الخَيْرِ الوَفيرُ، لَقَدْ أَصابَهُ الخَيْرُ كُلُّهُ.

وهَكَذا تَحَقَّقَتِ النُّبوءَةُ الأولى.

وذاتَ يَوْمٍ، بَيْنَما كانَ جالِسًا في حَديقَةِ قَصْرِهِ، أَخَذَ يُفَكِّرُ في حالِهِ وَتَذَكَّرَ الصُّنْدوقَ الخَشَبِيَّ والوَرَقَةَ الصَّفْراءَ وما قَرَأَهُ فيها، فَأَصابَهُ الغَمُّ والكَدَرُ، والحُزْنُ والهَمُّ، وأَخَذَ يُرَدِّدُ في حَسْرَةٍ وأَلَمٍ: «هَذا هُوَ الخَيْرُ كُلُّهُ وبَقِيَ الشَّرُّ كُلُّهُ. بَقِيَ الشَّرُّ كُلُّهُ. بَقِيَ الشَّرُّ... سَيُصيبُني

الشَّرُّ.»

لَمْ يَعُدْ يَتَذَوَّقُ الطَّعامَ رَغْمَ كَثْرَتِهِ ولا يَتَمَتَّعُ بِالخَيْراتِ رَغْمَ وَفْرَتِها وأَصابَهُ الضَّعْفُ والهُزالُ، حَتّى مَرِضَ مَرَضًا شَديدًا. اِسْتَعانَ الأَهْلُ والأَصْدقاءُ بِالكَثيرِ مِنَ الأَطِبّاءِ مِنْ أَنْحاءِ البِلادِ وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ أَيُّ عِلاجٍ، فَحارَ فيهِ الأَطّباءُ، فَمَرَضُ حَمْدانَ لَيْسَ مِنَ الأَمْراضِ الَّتي تُصيبُ البَدَنَ ولَكِنْ مِنَ الأَمْراضِ الَّتي تُصيبُ النَّفْسَ والعَقْلَ، فَهُوَ خائِفٌ مَذْعورٌ، يَتَوَقَّعُ دائِمًا السّوءَ ويَنْتَظِرُهُ في كُلِّ لَحْظَةٍ ودَقيقَةٍ؛ فَلَقَدْ تَحَقَّقُ ما بِالوَرَقَةِ.

شَعَرَ حَمْدانُ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ، فَطَلَبَ مِنْ أَحَدِ خَدَمِهِ المُخْلِصينَ أَنْ يَحْضُرَ إِلَيْهِ لِيَكْتُبَ وَصِيَّتَهُ وأَصَرَّ أَنْ يَكونَ وَحيدًا وأَلا يُطْلِعَ أَحدًا عَلى هَذِهِ الوَصِيَّةِ إلا بَعْدَ مَوْتِه.

حَضَرَ الخادِمُ ودَخَلَ حُجْرَةَ سَيِّدِهِ وانْفَرَدَ بِهِ ثُمَّ كَتَبَ ما أَمْلاهُ عَلَيْهِ ووَضَعَهُ في الخِزانَةِ الحَديدِيَّةِ ووَضَعَ مِفْتاحَها تَحْتَ وِسادَةِ سَيِّدِهِ وانْصَرَفَ.

وَبَعْدَ ذَلِكَ بِأَيّامٍ تُوُفِّيَ حَمْدانُ فَأَصابَهُ الشَّرُّ كُلُّهُ وتَحَقَّقَتِ النُّبوءَةُ الثّانِيَةُ.

وعِنْدَما فَتَحَ الأَوْلادُ الوَصِيَّةَ الَّتي تَرَكَها لَهُمُ الأَبُ قَرَأوا فيها ما يَلي:

«أَبْنائي الأَعِزّاءَ، لَقَدْ تَرَكْتُ لَكُمْ مِنَ الأَمْوالِ ما يَكْفيكُمْ مَدى الحياةِ. تَرَكْتُ لَكُمْ أَمْوالًا وضياعًا وتِجارَةً وخَيْرًا كَثيرًا، ولَكِنْ يا أَبْنائي، اِعْلَموا أَنَّ الخَيْرَ كُلَّ الخَيْرِ لَيْسَ في المالِ ولَكِنْ في راحَةِ البالِ، واطْمِئْنانِ النَّفْسِ، وأَنَّ الشَّرَّ كُلَّ الشَّرِّ هُوَ أَنْ تَحْصُدوا ما لَمْ تَزْرَعوهُ وتَجْنوا ثِمارَ ما لَمْ تَفْعَلوهُ، فَإِيّاكُمْ يا أَوْلادي أَنْ تَكْتَفوا بِهَذِهِ الأَمْوالِ، عَلَيْكُمْ بِالعَمَلِ وَالاجْتِهادِ لِتَشْعُروا بِلَذَّةِ الجَهْدِ وَحَلاوَةِ التَّعَبِ، وتَحَصُلوا عَلى السَّعادَةِ وراحَةِ البالِ.

هَذِهِ وَصِيَّتي لَكُمْ، فَإِنِ اتَّبَعْتُموها حَصَلْتُمْ عَلى الخَيْرِ كُلِّهِ، وَإِنْ أَهْمَلْتُموها أَصابَكُمُ الشَّرُّ كُلُّهُ.»

الحُلْمُ

هَلْ جَرَّبْتَ يَوْمًا أَنْ تَدْخُلَ كِتابًا وتَخْرُجَ مِنْهُ؟ أَيْ أَنْ تَعيشَ أَحْداثَهُ، فَيُصْبِحَ الواقِعُ خيالًا والخَيالُ واقِعًا.

هَذا ما حَدَثَ لأَحْمَدَ وخالِدٍ، فَلْنَقْرَأْ مَعًا ما حَدَثَ لَهُما. في يَوْمٍ شَديدِ البُرودَةِ، جَلَسَ أَحْمَدُ يَقْرَأُ كِتابًا عَنْ حَياةِ عِمْرانَ الصَّيّادِ الفَقيرِ، الَّذي لا يَكادُ يَجِدُ قوتَ يَوْمِهِ وَلا يَسْتَطيعُ أَنْ يُطْعِمَ أَوْلادَهُ، فَحَياتُهُ جافَّةٌ، وأَطْفالُهُ جِياعٌ، لا يَجِدون ما يَمْلأُ بُطونَهُمْ أَوْ يَسْتُرُ أَجْسادَهُمْ.

وفي هَذا الشِّتاءِ القارِسِ، ضَنَّ البَحْرُ بِخَيْراتِهِ، وباتَتْ أَمْواجُهُ ثائِرَةً تُعَرِّضُ حَياةَ الصَّيّادينَ لِلخَطَرِ.

وعَلى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ، كانَ عِمْرانُ يَسْتَيْقِظُ في الصَّباحِ الباكِرِ، ويَتَوَكَّلُ عَلى اللهِ، ماضِيًا في مَرْكَبِهِ وَمَعَهُ شِباكُهُ، داعِيًا اللهَ أَنْ يَعودَ بِرِزْقٍ وطَعامِ أَطْفالِهِ الخَمْسَةِ

وأُمِّهِمْ. وَلِكِنْ عِنْدَ عَوْدَتِهِ في آخِرِ النَّهارِ، لا يَكْفي ما حَصَلَ عَلَيْهِ مِنْ أسْماكٍ لإطْعامِ أَوْلادِهِ وَإِشْباعِهِمْ ولا يَبْقى شَيْءٌ لِبَيْعِهِ.

اسْتَمَرَّ الحالُ عَلى هَذا المِنْوالِ أُسْبوعًا وَراءَ أُسْبوعٍ، والبَرْدُ يَشْتَدُّ، واليَأْسُ يَدِبُّ في قَلْبِ عِمْرانَ والبَحْرُ يَضَنُّ بِخَيْراتِهِ، كَأَنَّ السَّمَكَ يَخْتَبِئُ مِنْهُ، في قاعِ البَحْرِ، ولا تَصِلُ إِلَيْهِ الشِّباكُ.

كانَ أَحْمَدُ يَقْرَأُ حِكايَةَ عَمِّ عِمْرانَ وهُوَ مُتَأَثِّرٌ بِحالِهِ، مُتَأَلِّمًا لِما وَصَلَ إِلَيْهِ حالُ أَطْفالِهِ. وبَيْنَما هُوَ مُسْتَغْرِقٌ في القِراءَةِ غَلَبَهُ النُّعاسُ ونامَ.

تَحَوَّلَ أَحْمَدُ في الحُلْمِ إلى شَخْصِيَّةٍ مِنْ شَخْصيّاتِ الرِّوايَةِ الَّتي كانَ يَقْرَؤُها، فَهُوَ صَيّادٌ شابٌّ يَلْبَسُ نَفْسَ مَلابِسِ عِمْرانَ ولَكِنْ قَوِيُّ البِنْيَةِ، ضَخْمُ الجُثَّةِ، مَفْتولُ العَضَلاتِ، نَزَلَ إلى البَحْرِ مُصارِعًا الأَمْواجَ، جَسورًا، شُجاعًا، فَارْتَمَتْ في شِباكِهِ الأَسْماكُ مِنْ كُلِّ حَجْمٍ

ولَوْنٍ. وعادَ في آخِرِ النَّهارِ بِرِزْقٍ وَفيرٍ، أَعْطى جُزْءًا مِنْهُ لِعِمْرانَ لِيَأْكُلَ حتّى يَشْبَعَ هُوَ وعائِلَتُهُ وَباعَ باقي السَّمكِ. ونَزَلَ إِلى السّوقِ فَاشْتَرى مَلابِس لِعِمْرانَ، وزَوْجَتِهِ وأَوْلادِهِ تَقيهُمُ البَرْدَ، كَما ابْتاعَ (اشْتَرى) لَهُمْ أَغْطِيَةً تَمْنَحُهمُ الدِّفْءَ والكَثيرَ مِنَ الطَّعامِ مِمّا لَذَّ وطابَ لِيَمْلأَ بُطونَهُمْ.

تَحَوَّلَ أَحْمَدُ في حُلْمِهِ إِلى بَطَلِ القِصَّةِ الَّذي أَنْقَذَ الصَّيّادَ المِسْكينَ مِنَ الجوعِ والبَرْدِ والهَلاكِ، ولَكِنَّهُ عِنْدَما اسْتَيْقَظَ وأَمْسَكَ بِكتابِهِ وَجَدَ الحالَ هُوَ الحالَ، وعِمْرانُ ما زالَ جائِعًا وأَوْلادُهُ مُعَرَّضونَ لِلْهَلاكِ والمَوْتِ.

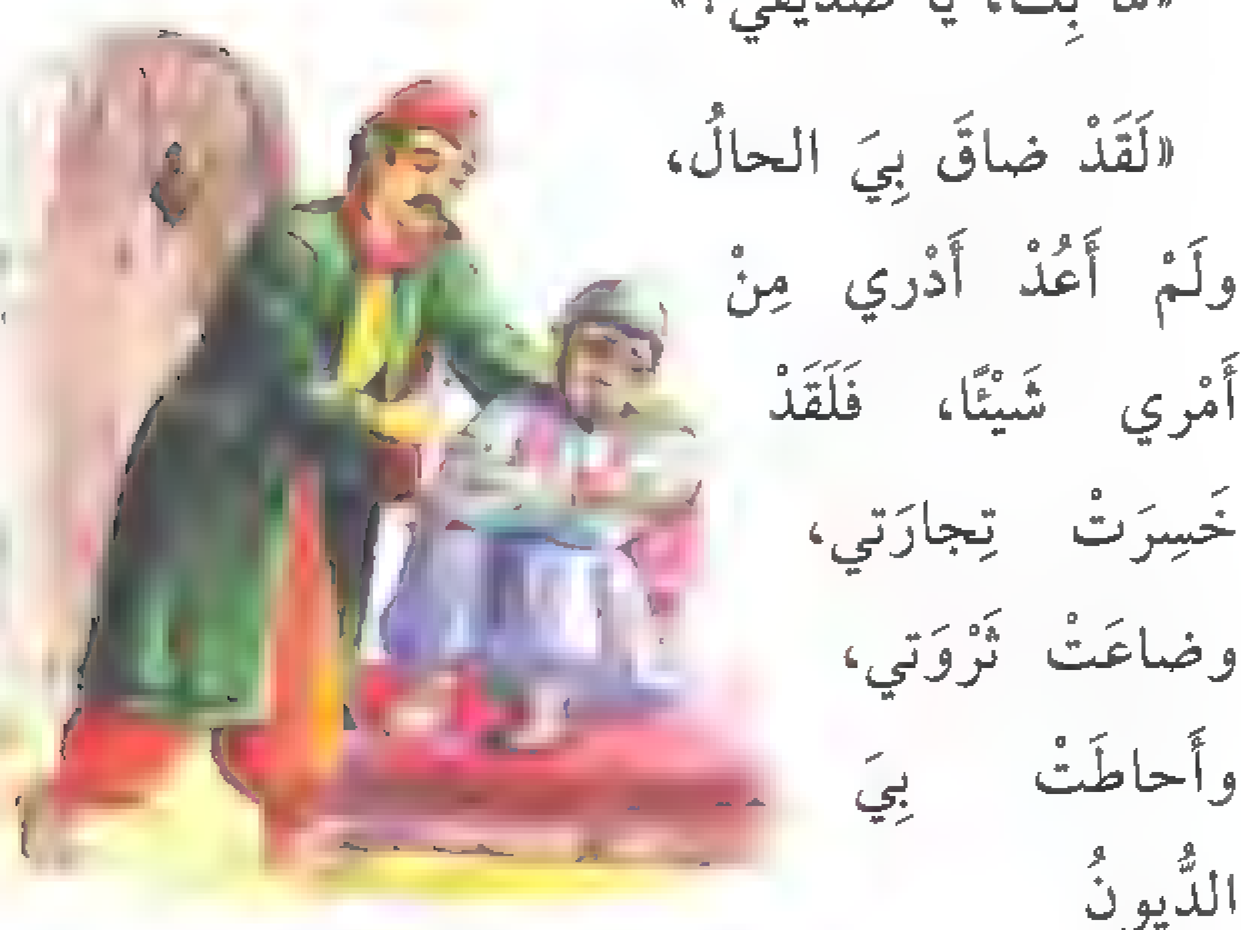
وتَمُرُّ الأَيّامُ ويَزْدادُ الأَمْرُ سوءًا، وأَحْمَدُ مُتَأَثِّرٌ لِحالِ عِمْرانَ ولا يَمْلِكُ لَهُ شَيْئًا، ولا يَسْتَطيعُ لَهُ نَفْعًا.

ولَكِنْ قُرْبَ نِهايَةِ القِصَّةِ، عِنْدَما أَوْشَكَ الجَميعُ عَلى الهَلاكِ حَدَثَ ما لَمْ يَكُنْ في الحُسْبانِ، فَانْقَشَعَتِ الغُيومُ، وَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ، وتَحَسَّنَ الجَوُّ، وامْتَلأَتْ شِباكُ عِمْرانَ بِالخَيْرِ الوَفيرِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ ولَوْنٍ، فَهُوَ

لَمْ يَيْأَسْ ولَمْ يَكِلَّ وإِنَّما اسْتَمَرَّ في الجُهْدِ والمُثابَرَةِ حَتّى زالَتِ الغُمَّةُ. فَرِحَ أَحْمَدُ لِنَجاةِ عِمْرانَ وعائِلَتِهِ وانْفَرَجَتْ أَساريرُهُ عَنِ ابْتِسامَةٍ مُضيئَةٍ وَأَغْلَقَ كِتابَهُ وَذَهَبَ لِيَتَرَيَّضَ.

خَرَجَ أَحْمَدُ مِنْ مَنْزِلِهِ قاصِدًا الحَديقَةَ الكَبيرَةَ المُجاوِرَةَ، وَلَكِنَّهُ ما كادَ يَخْطو بِضْعَ خُطُواتٍ حَتّى سَمِعَ بُكاءً وَنَحيبًا، وَعِنْدما اسْتَطْلَعَ الأَمْرَ وَجَدَ جارَهُ «خالِدًا» جالِسًا يَبْكي أَمامَ مَنْزِلِهِ، فَبادَرَهُ قائِلًا:

«ما بِكَ، يا صَديقي؟»



«لَقَدْ ضاقَ بِيَ الحالُ، ولَمْ أَعُدْ أَدْري مِنْ أَمْري شَيْئًا، فَلَقَدْ خَسِرَتْ تِجارَتي، وضاعَتْ ثَرْوَتي، وأَحاطَتْ بِيَ الدُّيونُ

مِنْ كُلِّ جانِبٍ. لَقَدِ اسْوَدَّتِ الدُّنْيا في وجَهْي، فَدَعْني أَبْكي عَلى حالي وَانْصَرِفْ لِشَأْنِكَ.»

«كَيْفَ أَتْرُكُكَ لحِالِكَ؟ تَأَكَّدْ يا صَديقي أَنَّ بَعْدَ العُسْرِ يُسْرًا، وأَنَّ اللهَ لا يَتْرُكُ عِبادَهُ ولا يُهْمِلُهُمْ، فَمَهْما تَضيق بِكَ الدُّنْيا، سَتَنْكَشِف الغُمَّةُ.»

سَرَحَ أَحْمَدُ بِفِكْرِهِ قَليلًا وتَذَكَّرَ أَنَّ هَذا هُوَ الدَّرْسُ المُسْتَفادُ مِنَ القِصَّةِ الَّتي كانَ يَقْرَؤُها، وهَذا هُوَ ما حَدَثَ مَعَ عِمْرانَ الصَّيّادِ.

«اِنْتَظِرْني هُنا لحْظَةً، سَأَعودُ حالًا.»

ذَهَبَ أَحْمَدُ إِلى مَنْزِلِهِ، وعادَ بِقِصَّةِ عِمْرانَ وأَعْطاها لخِالِدٍ قائِلًا: «اِقْرَأْ هَذِهِ القِصَّةَ، ولا تَسْتَغْرِقْ في أَحْزانِكَ.»

«ماذا تَقولُ؟ كَيْفَ أَقْرَأُ قِصَّةً وأَنا في هَذِهِ الحالِ، وَقَدْ هَدَّني الهَمُّ والحُزْنُ! أَرْجوكَ، اتْرُكْني وَشَأْني.»

«اِسْتَمِعْ إِلَيَّ، فَعِنْدَما يَكونُ الإنْسانُ في ضيقٍ شَديدٍ فَيَجِبُ أَنْ يَكونَ هُناكَ ما يُفَرِّجُ عَنْهُ حَتّى يَحْتَمِلَ حُزْنَهُ وَيَصْبِرَ عَلَيْهِ... اِقْرَأْ يا صَديقي هَذِهِ القِصَّةَ وحاوِلْ أَنْ تَنْسى- وَلَوْ لِساعاتٍ قَليلَةٍ- حُزْنَكَ، وسَأراكَ هَذا المَساءَ. إِلى اللِّقاءِ.» مَضى أَحْمَدُ في طَريقِهِ، وأَخَذَ خالِدٌ يَتَصَفَّحُ الكِتابَ. وبَدَأَ يَقْرَأُ الأَسْطُرَ الأولى ثُمَّ شَدَّتْهُ القِصَّةُ فَاسْتَغْرَقَ في القِراءَةِ وَلَمْ يَتْرُكْها إلا بَعْدَ أَنْ أَتَمَّ قِراءَتَها.

قالَ لِنَفْسِهِ: «إِنَّها قِصَّةٌ شائِقَةٌ فِعْلًا ولَكِنَّها عادِيَّةٌ، وَقِصَّةٌ مِنَ الخَيالِ. إِنَّ أَحْمَدَ شَخْصٌ حَسّاسٌ، رَقيقُ المَشاعِرَ، خَيالِيٌّ يَتَأَثَّرُ بِالقِصَصِ وَيَنْفَعِلُ بِها، ولَكِنَّني أَعيشُ الواقِعَ وأَحْياهُ، وأَمامي مُشْكِلَةٌ لا أَسْتَطيعُ حَلَّها، فَكَيْفَ أَهْرُبُ إِلى الخَيالِ مُحاوِلًا نِسْيانَ الواقِعِ؟ ولَكِنْ.. ولَكِنْ لَقَدْ شَعَرْتُ بِبَعْضِ الرّاحَةِ حينَ صَرَفْتُ ذِهْني عَمّا يَشْغَلُهُ، ولا شَكَّ أَنَّني اسْتَمْتَعْتُ بِقِراءَةِ هَذِهِ القِصَّةِ،

سَأَذْهَبُ إِلى أَحْمَدَ وَأَسْتَعيرُ قِصَّةً أُخْرى فَهُوَ يَهْوى القِراءَةَ ولَدَيْهِ الكَثيرُ مِنَ الكُتُبِ.»

ذَهَبَ خالِدٌ إِلى أَحْمَدَ واسْتَعارَ مِنْهُ قِصَّةً أُخْرى وبَدَأَ في قِراءَتِها:

في قَديمِ الزَّمانِ كانَتْ هُناكَ بَلْدَةٌ تَقَعُ عَلى البَحْرِ وَيَشْتَغِلُ أَهْلُها بِالتِّجارَةِ، ويُسافِرونَ مِنْ بَلَدٍ إِلى بَلَدٍ ومَعَهُمُ العُطورُ والبَخورُ، والفاكِهَةُ والأَقْمِشَةُ، ويَعودونَ بِما يَجودُ بِهِ كُلُّ بَلَدٍ مِنْ خَيْراتِهِ، فَمِنْ هَذا بِالحَريرِ، ومِنْ هَذا بِالصّوفِ، ومِنْ ذَلِكَ بِالجُلودِ، يَبيعونَ ويَشْتَرونَ، ويَكْسِبونَ المالَ الكَثيرَ.

وكانَ عِرْفانُ مِنْ ضِمْنِ التُّجّارِ المَهَرَةِ، ذاعَ صيتُهُ ووَثِقَ فيهِ النّاسُ لأَمانَتِهِ وَنَزاهَتِهِ.

وفي يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ، قامَتْ عاصِفَةٌ أَغْرَقَتْ مَراكِبَ عِرْفانَ وما بِها مِنْ بَضائِعَ ونَجا هُوَ ومَنْ مَعَهُ مِنْ بَحّارَتِها، واسْتَبَدَّ اليَأْسُ بِعِرْفانَ ولَكِنْ خَطَرَتْ لَهُ فِكْرَةٌ، فَذَهَبَ إِلى...»

وَبَيْنَما كانَ خالِدٌ مُسْتَغْرِقًا في القِراءَةِ، سَمِعَ وَقْعَ أَقْدامٍ مُقْبِلَةٍ عَلَيْهِ فَوَضَعَ الكِتابَ جانِبًا لِيَتَبَيَّنَ الأَمْرَ، ووَجَدَ أَمامَهُ رَجُلًا يَرْتَدي مَلابِسَ غَريبَةً مِنَ الحَريرِ وتُحيطُ رَأْسَهُ عِمامَةٌ كَبيرَةٌ، فانْزَعَجَ خالِدٌ وسَأَلَهُ في دَهْشَةٍ: «مَنْ أَنْتَ؟ وماذا تُريدُ؟»

«أَنا التّاجِرُ عِرْفانُ، جِئْتُ أَعْرِضُ عَلَيْكَ أَمْرًا مُهِمًّا؟ فَحالُنا واحِدٌ وهَمُّنا واحِدٌ، أَنْتَ خَسِرْتَ تِجارَتَكَ وأَنا غَرِقَتْ تِجارَتي، فَلِماذا لا نَتعاوَنُ وتُشارِكُني حَتّى نَنْهَضَ مِنْ عَثْرَتِنا؟»

«كَيْفَ أُشارِكُكَ وبِأَيِّ شَيْءٍ؟ أَنا لَمْ يَتبَقَّ لي سِوى مَنْزِلي هَذا الَّذي أَعيشُ فيهِ ولا أَسْتَطيعُ التَّصَرُّفَ فيهِ مَهْما يَسوءُ الحالُ، لَقَدْ وَرِثْتُهُ عَنْ والِدي وسَأُحافِظُ عَلَيْهِ حَتّى يَسْكُنَهُ أَوْلادي وأَحْفادي مِنْ بَعْدي.»

«إِذَنِ ابْحَثْ عَنْ شَخْصٍ مَعَهُ بَعْضُ المالِ لِتُشارِكَهُ،

هُوَ بِمالِهِ وأَنْتَ بِعَمَلِكَ ومَهارَتِكَ، وسَأَبْحَثُ أَنا عَنْ شَخْصٍ آخَرَ. وَداعًا.»

- «انْتَظِرْ يا عِرْفانُ...انْتَظِرْ.»

ولَكِنْ عِرْفانُ كانَ قَدِ اخْتَفى كَما ظَهَرَ.

كانَ خالِدٌ دَهِشًا، مُنْزَعِجًا، لا يَدْري أَحَقيقَةً أَمْ خَيالًا ما رَأى، فَقالَ في نَفْسِهِ:

«وَلَكِنْ كانَ هُنا أَمامي يُحادِثُني... يَنْظُرُ إِلَيَّ.. وكُنْتُ أَشْعُرُ بِوُجودِهِ.. لَكِنْ...ولَكِنْ.»

عادَ خالِدٌ إِلى كِتابِهِ واسْتَكْمَلَ قِراءَةَ القِصَّةِ، فَوَجَدَ عِرْفانَ قَدْ ذَهَبَ لِشَيْخِ التُّجارِ وشارَكَهُ في تِجارَتِهِ بِعَمَلِهِ وجُهْدِهِ، وبَدَأَ يَسْتَعيدُ مالَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا و...

أَغْلَقَ خالِدٌ الكِتابَ ولَمْ يُتِمَّ قِراءَتَهُ. ظَلَّ خالِدٌ لَيْلَتَهُ ساهِرًا يُفَكِّرُ، ولَمْ يَغْمُضْ لَهُ جَفْنٌ. يا لَغَرابَةِ ما حَدَثَ!

ولَكِنَّهُ في الصَّباحِ الباكِرِ، كانَ وَاقِفًا أَمامَ مَنْزِلِ جارِهِ

أَحْمَدَ يَنْتَظِرُ خُروجَهُ. ولمّا رَآهُ مُقْبِلًا بادَرَهُ قائِلًا:

«أُريدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكَ عَرْضًا أَرْجو أَنْ تَقْبَلَهُ دونَ تَرَدُّدٍ.

«ماذا بِكَ؟ ولماذا تَبْدو مُنْزَعِجًا هَكَذا؟ ماذا تُريدُ يا صَديقي؟»

«أُريدُ أن تُشارِكَني في التِّجارَةِ، أَنْتَ بالمالِ وأَنا بالجُهْدِ ولا تَخْشَ شَيْئًا. سَنكْسِبُ بإذْنِ اللهِ.»

وافَقَ أَحْمَدُ على مُشارَكَةِ جارِهِ، وأَعْطاهُ مَبْلَغًا مِنَ المالِ. وبَعْد أَشْهُرٍ قَليلَةٍ، شَعَرَ بِحَلاوَةِ المَكْسَبِ، وبَدَأَتْ ثَرْوَتُهُما تَزْدادُ بِمُرورِ الأَيامِ، فاسْتَرَدَّ خالِدٌ ما كانَ قَدْ فَقَدَهُ مِنْ أَمْوالٍ ولَمْ يَنْدَمْ أَحْمَدُ عَلى مُشارَكَتِهِ.

والآنَ يا صَديقي، أَمْسِكْ بِكِتابِكَ، وأَحْسِنِ اخْتِيارَهُ. أُدْخُلْهُ، ادْخُلْ إِلى عالَمِهِ السّاحِرِ، ولَكِنْ عَلَيْكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهُ في الوَقْتِ المُناسِبِ.

اللِّصُّ

جَرَتِ العادَةُ أنْ يَسْرِقَ الإنْسانُ شَيْئًا مَلْموسًا: نُقودًا، مَلابِسَ، حُلِيًّا أَوْ أيَّ شَيْءٍ لَهُ قيمَةٌ. ولَكِنْ هَلْ سَمِعْتَ عَنْ شَخْصٍ يَسْرِقُ أشْياءَ مُجَرَّدَةً: يَسْرِقُ سَعادَةً، يَسْرِقُ مَشاعِرَ، يَسْرِقُ عُمْرَ إِنْسانٍ آخَرَ؟

قَبْلَ أنْ تَتَسَرَّعَ في الإجابَةِ يا صَديقي، اقْرَأْ هَذِهِ القِصَّةَ وتَأَمَّلْ مَغْزاها:

«تَعَوَّدَ أَنْ يَسْرِقَ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى المَشاعِرُ يَسْرِقُها، يَنْهَبُها، يَتَسَوَّلُها مِنْ أيِّ شَخْصٍ يُصادِفُهُ في طَريقِهِ.

يَسْتَدِرُّ عَطْفَ هَذا، ويَسْتَميلُ ذاكَ، ويَسْرِقُ إعْجابَ شَخْصٍ ثالِثٍ، ويُبْهِرُ إنْسانًا رابِعًا. المُهِمُّ أَنْ يَظَلَّ مِحْوَرَ اهْتِمامِ النّاسِ ومَوْضِعَ إعْجابِهِمْ.

كانَ بائِعًا لِلْكَلامِ، يَتَلاعَبُ بِالأَلْفاظِ، ويُبْهِرُ بِالكَلِماتِ، ويَقولُ كَلامًا مَعْسولًا، وعِباراتٍ رَنّانَةً، ويَتَمَلَّقُ هَذا ويُنافِقُ ذاكَ. وبَدَأَ الإِعْجابُ يُحيطُهُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ وكُلَّما زادَ الإِعْجابُ مِنْ حَوْلِهِ زادَ نِفاقُهُ وتَدْليسُهُ، حَتّى اسْتَوْلى عَلى مَشاعِرِ الآخَرينَ. شَيْئًا فشَيْئًا، بَدَأَ يَسْطو أَيْضًا عَلى حُقوقِ الغَيْرِ، ومُمْتَلَكاتِهِمْ.

شَخْصٌ واحِدٌ كانَ يَعْرِفُهُ عَلى حَقيقَتِهِ، شَخْصٌ واحِدٌ كانَ يَعْرِفُ أَنَّ وَراءَ هَذا الشَّكْلِ الزّائِفِ مَعْدِنًا أَصيلًا، وأَنَّ قَلْبَهُ رَقيقٌ، وأَنَّ مَشاعِرَهُ مُرْهَفَةٌ، ولَكِنَّهُ ضَلَّ الطَّريقَ، وجانَبَهُ الصَّوابُ. شَخْصٌ واحِدٌ كانَ مُتَأَكِّدًا من أنَّه كالعُمْلَةِ النّادِرَةِ الَّتي غَطّاها الصَّدَأُ.

كانَ هَذا الشَّخْصُ هُوَ أَقْرَبَ النّاسِ إِلَيْهِ وأَبْعَدَهُمْ عَنْهُ في الوَقْتِ نَفْسِهِ. قَريبٌ؛ لأَنَّهُ يَعْرِفُ عَنْهُ كُلَّ شَيْءٍ مُنْذُ مَوْلِدِهِ، راقَبَ نُمُوَّ جِسْمِهِ، ونُمُوَّ عَقْلِهِ، وتَحَوُّلَ مَشاعِرِهِ.

كانَ هَذا الشَّخْصُ هُوَ مَلاكَهُ الحارِسَ، هُوَ أُمَّهُ، ولَكِنَّها

كانَتْ أبْعَدَ النّاسِ عَنْهُ لأنَّها مِرآةٌ، يَرى فيها صُوَرَ عُيوبِهِ، يَرى فيها وَجْهَهُ القَبيحَ حينَ يَكْذِبُ ويُنافِقُ ويَتَمَلَّقُ ويَغُشُّ ويَسْرِقُ، فَيَتَحاشاها ويَتَجَنَّبُها، فَهِيَ تُواجِهُهُ بِعُيوبِهِ مَهْما تَكُنْ صَغيرَةً، ولَكِنَّها تَغْفِرُها مَهْما تَكُنْ كَبيرَةً... ويُعاوِدُ.. ويُعاوِدُ...ويَعْتَذِرُ...ويُقْسِمُ ويَسْتَغْفِرُ ويَتوبُ ثُمَّ يُعاوِدُ مِنْ جَديدٍ.

وكانَتْ تَدْعو اللهَ أَنْ يَهْديَهُ، أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، ولا تَتَمَنّى شَيْئًا مِنَ الدُّنْيا سِوى أنْ يَنْصَلِحَ حالُهُ، فَهِيَ الوَحيدَةُ الَّتي تَعْرِفُ مَعْدِنَهُ، تَعْرِفُ أَنَّ خَلْفَ هَذا القِناعِ المَصْنوعِ مِنَ الكَذِبِ والغِشِّ، قَلْبًا مِنْ ذَهَبٍ، ونَفْسًا عَفيفَةً، وعَقْلًا راجِحًا. هُوَ بَذْرَةٌ نَقِيَّةٌ في أرْضٍ طَيِّبَةٍ فَلا بُدَّ أَنْ تَطْرَحَ ثِمارًا جَيِّدَةً. كانَ يَكْفي أَنْ تَرْفَعَ عَنْهُ التُّرابَ كَيْ يَلْمَعَ ويَسْطَعَ، ويُزيلَ الغِشاوَةَ عَنْ عَيْنَيْهِ كَيْ يَرى وَيُبْصِرَ. ولَكِنَّهُ ذات مَرَّةٍ، سَوَّلَ لَهُ الشَّيْطانُ السَّرِقَةِ؛ سَرِقَةَ عُمْرِ أُمِّهِ! نَعَمْ، سَرَقَ عُمْرَها، حَطَّمَ مَشاعِرَها وَأَحْلامَها، وأَخَذَ حَياتَها كُلَّها.

كانَ ذَلِكَ في يَوْمٍ مِنْ أَيّامِ الشِّتاءِ القارِسِ، شَديدِ البُرودَةِ، وبَيْنَما كانَ الجَميعُ نِيامًا، والهُدوءُ يَعُمُّ المَكانَ، يَقْطَعُهُ مِنْ حينٍ لآخَرَ نُباحُ كَلْبٍ أو حَفيفُ أَوْراقِ الشَّجَرِ الَّتي يُحرِّكُها الهَواءُ. فَجْأَةً، سَمِعَتْ بابَ المَنْزِلِ يُفْتَحُ ويُغْلَقُ. نَهَضَتْ مِنْ فِراشِها في قَفْزَةٍ واحِدَةٍ، وجَرَتْ حَيْثُ يَنامُ وَحيدُها، وَلَكِنْ كانَ الفِراشُ خالِيًا وَلا يُوجدُ أَيُّ أَثَرٍ لَهُ. لَمْ تَغْمُضْ لَها عَيْنٌ طولَ اللَّيْلِ، وأَخَذَتْ تَضْرِبُ أَخْماسًا في أَسْداسٍ. أَيْنَ هُوَ؟ وأَيْنَ ذَهَبَ في هَذا البَرْدِ القارِسِ؟ وهَلِ ارْتَدى مَلابِسَ ثَقيلَةً تَحْميهِ مِنْ هَذا الجَوِّ؟ هَلْ عادَ إِلى ذَلِكَ الوَلَدِ اللَّعينِ؟

لَقَدْ أَقْسَمَ آخِرَ مَرَّةٍ...وكانَ يَبْدو صادِقًا، لَقَدِ اعْتَزَمَ التَّوْبَةَ.

وظَلَّتْ مُسْتَيْقِظَةً، تَمُرُّ السّاعاتُ كَأَنَّها سَنواتٌ ويَبْدو الوَقْتُ كَأَنَّهُ لا يَمْضي، ولَعَلَّهُ يَمْضي بَطيئًا...

بَطيئًا... واسْتَيْقَظَتْ مِنْ شُرودِها عَلى خُطُواتِهِ، ثُمَّ رَأَتْهُ يَفْتَحُ البابَ ويُلْقي عَليْها السَّلامَ، وقَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُ، هَرَبَ مِنْها إلى فِراشِهِ، هَرَبَ مِنْ عَيْنَيْها، هَرَبَ مِنْ مِرآتِهِ الَّتي يَرى فيها كُلَّ عُيوبِهِ. أَصَرَّتْ عَلى المُواجَهَةِ، ولِكِنَّهُ تَظاهَرَ بِالنَّوْمِ ولَمْ يَرُدَّ. قَلْبُها يُحَدِّثُها أَنَّهُ اقْتَرَفَ إِثْمًا، إِنَّهُ يَهْرُبُ مِنَ المُواجَهَةِ كُلَّما اقْتَرَفَ إِثْمًا؛ فَمُنْذُ كانَ صَغيرًا يَهْرُبُ مِنَ مُواجَهَتِها هِيَ بِالذّاتِ، يَهْرُبُ مِنْ مِرآتِهِ الَّتي يَرى فيها حَقيقَتَهُ.

لَمْ تَسْتَطِعِ العَوْدَةَ إِلى فِراشِها لِتَنامَ، وجَلَسَتْ شارِدَةً تُفَكِّرُ وتَدْعو لَهُ بِالهِدايَةِ إِلى أَنْ سَمِعَتْ طَرَقاتٍ عَلى البابِ، فَتَحَتْ، فَوَجَدَتْ جَمْعًا مِنَ العَساكِرِ، وقَبْلَ أَنْ تَنْطِقَ بِحَرْفٍ، كانوا قَدْ دَلِفوا إِلى المَنْزِلِ، يُفَتِّشونَ هُنا وهُناكَ، إِلى أَنْ وَجَدوهُ فَأَخَذوهُ مَعَهُمْ واخْتَفَوْا عَنْ عَيْنَيْها. خَطَفَتْ وِشاحَها الصّوفِيَّ، وأَخَذَتْ تَعْدو وَراءَهُمْ بِالرَّغْمِ مِنْ كِبَرِ سِنِّها ومَرَضِها، كانَتْ تُحاوِلُ اللَّحاقَ بِهِمْ، اللَّحاقَ

بِهِ، اللَّحاقَ بِعُمْرِها الَّذي سُرِقَ مِنْها.

كانَتْ تُفَكِّرُ، وهِيَ تَلْهَثُ وَراءَهُمْ، في حَياتِهِما مَعًا، تَسْتَعْرِضُ كُلَّ الأحْداثِ كَأنَّها شَريطٌ سينِمائِيٌّ تَراهُ أمامَها، ميلادَهُ عَلى شاشَةِ السَّماءِ، يَوْمَ مَوْلِدِهِ، أَوَّلَ كَلِمَةٍ نَطَقَ بِها، أَوَّلَ يَوْمٍ ذَهَبَتْ بِهِ إلى المَدْرَسَةِ، يَوْمَ وَفاةِ والِدِهِ، أَوَّلَ مَرَّةٍ سَرَقَ فيها. كانَ أَوَّلَ ما سَرَقَ قَلَمٌ صَغيرٌ أَخَذَهُ خُلْسَةً مِنْ زَميلِهِ الجالِسِ مَعَهُ عَلى نَفْسِ المَقْعَدِ، ثُمَّ ساعَةَ زَميلٍ آخَرَ، ثُمَّ نُقودَ باقي الزُّمَلاءِ، ثُمَّ مَشاعِرَهُمْ.

كانَ يَسْرِقُ إعْجابَهُمْ ويُبْهِرُهُمْ بِأَقْوالِهِ وأَفْعالِهِ ويَلْجَأُ لِلْكَذِبِ والنِّفاقِ، وها هُوَ ذا يَسْرِقُ عُمْرَها وعُمْرَهُ. ماذا فَعَلَ يا تُرى؟ هَلْ سَيَنْتَهي بِهِ الأَمْرُ إلى السِّجْنِ؟ هَلْ سَتَفْقِدُهُ؟ هَلْ... وهَلْ... وهَلْ...؟

كانَتْ تُفَكِّرُ في كُلِّ ذَلِكَ وهِيَ تَلْهَثُ وَراءَهُمْ تَتَعَثَّرُ ثُمَّ تَنْهَضُ، هَلْ هِيَ المُخْطِئَةُ؛ لأَنَّها سامَحَتْ وعَفَتْ، هَلْ

لَمْ تَهْتَمَّ بِهِ الاهْتِمامَ الكافِيَ، أَوْ رُبَّما لَمْ تُعاقِبْهُ العِقابَ المُناسِبَ. هَلْ هِيَ الَّتي أَخْطَأَتْ أَوْ هُوَ المُخْطِئُ؟

وعِنْدَما لَحِقَتْ بِهِمْ في قِسْمِ الشُّرْطَةِ، أَدْرَكَتْ أَنَّها لَنْ تَراهُ مَرَّةً أُخْرى. لَقَدْ حُكِمَ عَلَيْهِ بِالسَّجْنِ ثَلاثَةَ أَعْوامٍ. ثَلاثَةُ أَعْوامٍ لَنْ تَراهُ؛ ثَلاثَةُ أَعْوامٍ ضاعَتْ مِنْ عُمْرِهِما. ولَكِنَّها لَمْ تَيْأَسْ وظَلَّتْ تَنْتَظِرُ، ثَلاثَةُ أَعْوامٍ وهِيَ تَنْتَظِرُ. ومَعَ غُروبِ شَمْسِ كُلِّ يَوْمٍ تَشْعُرُ أَنَّ مَوْعِدَ لِقائِهِما نَقَصَ يَوْمًا. لَمْ تَزُرْهُ خِلالَ هَذِهِ الأَعْوامِ الثَّلاثَةِ، لَمْ تُرْسِلْ لَهُ خِطابًا واحِدًا، تَرَكَتْهُ لِنَفْسِهِ. اتَّهَمَها بِعَدَمِ الاكْتِراثِ بِهِ، ولَمْ يَكُنْ يَدْري أَنَّهُ كُلُّ حَياتِها، تَعيشُ لَهُ وبِهِ، حَمَلَتْهُ وَهْنًا عَلى وَهْنٍ، وأَرْضَعَتْهُ، وعَلَّمَتْهُ وأَحَبَّتْهُ، كَما لَمْ تُحِبَّ أَحَدًا.

كانَ يُمْكِنُها أَنْ تَتَغاضى عَنْ عُيوبِهِ، أَنْ تُغْمِضَ عَيْنَيْها، وتَقولَ لَهُ أَحْلى الكَلامِ الَّذي يُرْضيهِ فَقَطْ، ولَكِنَّها تَخافُ عَلَيْهِ وتُريدُهُ أَنْ يَكونَ أَفْضَلَ النّاسِ جَميعًا، لِذَلِكَ كانَتْ دائِمًا قاسِيَةً، دائِمًا تَصْطَدِمُ بِهِ،

دائِمًا تَنْهَرُهُ، فَخَرَجَ يَبْحَثُ عَنْ إِعْجابِ النّاسِ، يَسْرِقُ مَشاعِرَهُمْ، ويَتَسَوَّلُ انْبَهارَهُمْ بِهِ، بِما يَقولُ ويَفْعَلُ. لَقَدْ رَعَتْهُ، ولَكِنَّها لَمْ تُنافِقْهُ، واجَهَتْهُ بِشِدَّةٍ بِكُلِّ عُيوبِهِ، فَهَلْ كانَ جَزاؤُها أَنْ تَفْقِدَهُ؟

عِنْدَما ضَعُفَتْ قُواها ومَرِضَت بِشِدَّةٍ وأَدْرَكَتْ دُنُوَّ أَجَلِها، تَمَنَّتْ أَنْ تَراهُ قَبْلَ أَنْ تَموتَ، أَنْ تَضُمَّهُ إِلى صَدْرِها، لَيْتَهُ يَعْرِفُ كَمْ تَتَعَذَّبُ لِفِراقِهِ، وكَمْ تُشْفِقُ عَلَيْهِ، وكَمْ تُحِبُّهُ.

قَرَّرَتْ أَنْ تَكْتُبَ لَهُ، فَقَدْ لا تَراهُ ثانِيَةً صَباحَ مَساءَ، وقَضَتْ ما تَبَقّى لَها مِنْ أَيّامٍ صَباحَ مَساءَ تَكْتُبُ وتَكْتُبُ عَمَّنْ كانَتْ تَتَمَنّى أَنْ تَضُمَّهُ إِلى صَدْرِها، أَنْ تَمْسَحَ عَلى شَعْرِهِ، أَنْ تَحْمِيَهُ مِنْ عُيوبِهِ، ولَكِنَّهُ لَمْ يُعْطِها الفُرْصَةَ.

كانَ الخَطَأُ يَعْقُبُهُ خَطَأٌ آخَرُ، وهِيَ عَلَيْها دائِمًا أَنْ تُعاقِبَهُ حَتّى يَتَعَلَّمَ، أَنْ تَنْهَرَهُ حَتّى يَنْصَلِحَ شَأْنُهُ، أَنْ يَرْتَدَّ عَمّا هُوَ فيهِ. كَتَبَتْ، كَتَبَتْ كُلَّ ما كانَتْ تُريدُ أَنْ

تَقولَهُ لَهُ، وأَنْ تُصَرِّحَ لَهُ بِهِ وكَتَمَتْهُ في قَلْبِها سَنواتٍ وسَنواتٍ، كَتَبَتْ حَتّى آخِرِ نَفَسٍ تَنَفَّسَتْهُ، كَتَبَتْ حَتّى آخِرِ دَقَّةٍ مِنْ دَقّاتِ قَلْبِها.

وَيَوْمَ خُروجِهِ مِنَ السِّجْنِ، كانَتْ غائِبَةً، لَمْ تَكُنْ في لِقائِهِ، هَذا اللِّقاءِ الَّذي طالَما حَلَمَتْ بِهِ وتَمَنَّتْهُ.

ولَمْ تَتْرُكْ لَهُ سِوى هَذا الخِطابِ، الَّذي كَشَفَ عَنْ هَذا الكَنْزِ مِنَ المَشاعِرِ والأَحاسيسِ الَّتي اعْتَقَدَ أَنَّها تَضَنُّ بِها عَلَيْهِ وتَبْخَلُ بِهِ، لَقَدِ اخْتَفَتِ المِرآةُ الَّتي كانَ يَرى فيها عُيوبَهُ، ولَكِنَّهُ لَمْ يَعُدْ في حاجَةٍ لَها؛ لأَنَّهُ بِبساطَةٍ لَمْ تَعُدْ لَهُ عُيوبٌ.

والآنَ تَخَيَّلْ، يا صَديقي، أَنَّ هَذِهِ الأُمَّ هِيَ أُمُّكَ، أَوْ أُسْرَتُكَ، أَوْ وَطَنُكَ الصَّغيرُ أَوْ بَلَدُكَ -وَطَنُكَ الكَبيرُ- وأَنَّكَ أَخْطَأْتَ في حَقِّها، بِإِهْمالِكَ دُروسَكَ أَوْ عَمَلَكَ، بِتَقْصيرِكَ في شَيْءٍ ما. إذا كُنْتَ قَدْ فَعَلْتَ ذَلِكَ فَسارِعْ بِالتَّوْبَةِ والنَّدَمِ، وإِذا كُنْتَ لَمْ تَفْهَمِ الرِّسالَةَ فَأَعِدْ قِراءَةَ القِصَّةِ مِنَ الأَوَّلِ مَرَّةً أُخْرى.

الشَّجَرَةُ

اسْتَيْقَظَ في هَذا اليَوْمِ مُبَكِّرًا عَلى غَيْرِ عادَتِهِ، فَلَقَدْ كانَ عَلَيْهِ أَنْ يُنْجِزَ عَمَلًا مُهِمًّا، أَنْ يَقْطَعَ الشَّجَرَةَ العِمْلاقَةَ الَّتي تَقِفُ شامِخَةً في أَوَّلِ حَقْلِهِ، وتَتَّخِذُها العَصافيرُ مَلْجَأً لَها، فَتَبْني فيها أَعْشاشَها، وتَطيرُ مِنْها لِتَأْكُلَ مِنْ ثِمارِ حَقْلِهِ مِنَ الكُرومِ والتّينِ والأَعْنابِ فَيَخْسِرُ الكَثيرَ مِنَ المالِ، ويَضيعُ جُهْدُهُ وتَعَبُهُ.

كانَ يُؤَجِّلُ فِكْرَةَ قَطْعِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، فَهِيَ مَوْجودَةٌ مِنْ قَبْلِ وُجودِهِ هُوَ نَفْسِهِ؛ رَآها مُنْذُ بَدَأَ يُمَيِّزُ الأَشْياءَ، ويَتَعَرَّفُ عَلَيْها. كانَ والِدُهُ يَجْلِسُ تَحْتَها لِيَسْتَريحَ مِنْ عَناءِ العَمَلِ في الحَقْلِ، وكانَتْ والِدَتُهُ تُحَضِّرُ الطَّعامَ، ويَأْكُلونَ وهُمْ مُسْتَظِلّونَ بِظِلِّها، فَتَحْميهُمْ مِنْ حَرِّ الصَّيْفِ، ومَطَرِ الشِّتاءِ. ولَكِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَقْطَعَها اليَوْمَ،

لَقَدِ اتَّخَذَ قرارًا لا رَجْعَةَ فيهِ، ولَنْ يَتَراجَعَ.

وأَمْسَكَ بِفَأْسِهِ، وهَمَّ يَقْطَعُ الشَّجَرَةَ وعِنْدَ أَوَّلِ ضَرْبَةِ فَأْسٍ سَمِعَها تَصْرُخُ- نَعَمْ سَمِعَ الشَّجَرَةَ تَصْرُخُ: «إِنَّكَ تُؤْلِمُني!»

«أَتَتَكَلَّمُ الشَّجَرَةُ، أَتَنْطِقُ؟ إِنّي أَتَخَيَّلُ أَشْياءَ عَجيبَةً.»

وهَمَّ مَرَّةً أُخْرى أَنْ يَقْطَعَها، وسَمِعَ مِنْ جَديدٍ صَوْتًا يَصْرُخُ: «إِنَّكَ تُؤْلِمُني!»

لَمْ يُصَدِّقْ أُذُنَيْهِ، ولَكِنَّهُ في المَرَّةِ الثّالِثَةِ تَأَكَّدَ مِنْ أَنَّها تَتَكَلَّمُ!

اقْتَرَبَ بِأُذُنَيْهِ مِنْ جِذْعِها، فَسَمِعَها تَقولُ:

«أَهانَتْ عَلَيْكَ العِشْرَةُ؟ أَتَقْطَعُ شَجَرَةَ أَجْدادِكَ؟لَقَدْ كُنْتُ بَذْرَةً صَغيرَةً، زَرَعَني جَدُّكَ ورَواني أَبوكَ ورَعاني، وتَأْتي أَنْتَ لِتَقْطَعَني أَيَّها الشَّقِيُّ!»

«يَجِبُ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ، لَيْسَ أَمامي أَيُّ خِيارٍ آخَرَ، فَأَنا أَخْسِرُ أَمْوالي ومَحْصولي.»

«إِذًا، ما دُمْتَ قَرَّرْتَ فَلْتَفْعَلْ، ولَكِنْ عَلَيْكَ أَوَّلًا أَنْ تَسْتَمِعَ إلى ما سَأَقُصُّهُ عَلَيْكَ ثُمَّ افْعَلْ ما شِئْتَ.»

«حَسَنًا، لَكِ ما تُريدينَ.»

«كانَ والِدُ جَدِّكَ يَعيشُ في بَلْدَةٍ لا زَرْعَ فيها ولا عُشْبَ، فالأَرْضُ غَيْرُ صالِحَةٍ، تَموتُ فيها البَذْرَةُ بِمُجَرَّدِ غَرْسِها فلا تُنْبِت؛ لأَنَّ المَطَرَ لا يَعْرِفُ الطَّريقَ إِلَيْها، فَهِي بَلَدٌ لا تُوجَدُ بِها زُهورٌ، ولا أَشْجارٌ، ولا ثِمارٌ، ولا خَيْراتٌ وكانَ النّاسُ يُعانونَ كَثيرًا في تِلْكَ البَلْدَةِ ويَذْهَبونَ لِلْمُدُنِ المُجاوِرَةِ لِلْحُصولِ عَلى ما يَحْتاجونَهُ مِنْ طَعامٍ وشَرابٍ. ونَتيجَةً لِعَدَمِ وُجودِ الزَّرْعِ، لَمْ يَكُنْ هُناكَ رَعْيٌ، فَعَلى أَيِّ شَيْءٍ سَتَتَغَذّى الماشِيَةُ والأَغْنامُ،

ولَمْ تَكُنْ هُناكَ تِجارَةٌ، فَأَيُّ المَحاصيلِ يَبيعونَ وأَيُّ حِرَفٍ يَتَعَلَّمونَ؟

«وازْدادَتْ مُعاناةُ النّاسِ دون فائِدَةٍ، فَلَجأوا لِلسِّحْرِ والشَّعْوَذَةِ دونَ جَدْوى، فالأَرْضُ صَحْراءُ قاحِلَةٌ، تَرْفُضُ اللَّوْنَ الأَخْضَرَ وتَنْبِذُهُ، إِلى أَنْ قَرَّرَ أَبو جَدِّكَ أَنْ يَجْمَعَ أَهْلَ البَلْدَةِ ويُصَلّونَ للهِ الواحِدِ القَهّارِ، الَّذي إذا أَرادَ شَيْئًا يَقول لَهُ كُنْ فَيَكونُ.

«واصْطَفَّ النّاسُ في المَسْجِدِ في ساحَةٍ كَبيرَةٍ عِنْدَ صَلاةِ الفَجْرِ في أَحَدِ أَيّامِ الصَّيْفِ شَديدَةِ الحَرارَةِ، وبَدَأوا يُصَلّونَ جَماعَةً صَلاةَ الاسْتِسْقاءِ، داعينَ اللهَ في قَلْبٍ واحِدٍ، وصَوْتٍ واحِدٍ أَنْ يَخَلِّصَهُمْ مِنْ هَذِهِ المُعاناةِ.

يُكَبِّرونَ ويَدْعونَ، وفي حَرَكَةٍ واحِدَةٍ يَسْجُدونَ ويَخْشَعونَ.»

واسْتَجاب اللهُ لِدُعائِهِمْ، ونَزَلَ الغَيْثُ، والنّاسُ يُكَبِّرونَ، ويُهَلِّلونَ ويَدْعونَ اللهَ مُخْلِصينَ، حَتّى بَدَأَت الأَرْضُ البورُ تُخْصِبُ وتَخْضَرُّ، وتُخْرِجُ نَباتَها. «وبَدَأَ النّاسُ يَأْكُلونَ مِنْ خَيْراتِ ما يَزْرَعونَ بِأَيْديهِمْ لِلْمَرَّةِ

الأولى في حَياتِهِمْ، وتَبَدَّلَتْ أَحْوالُهُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ.»

«وَهُمْ لِذَلِكَ كانوا يَعْرفونَ جَيِّدًا قيمَةَ النَّبْتِ والزِّراعَةِ، فَبَدَأَ كُلُّ واحِدٍ يَزْرَعُ شَجَرَةً أَمامَ مَنْزِلِهِ، وفي الشّارِعِ الَّذي يُقيمُ فيهِ، وفي المَدْرَسَةِ الَّتي يَتَعَلَّمُ فيها أَوْلادُهُ، وفي أَماكِنَ العَمَلِ، وفي المَسْجِدِ والكَنيسَةِ، وفي كُلِّ مَكانٍ، حَتّى أَصْبَحَتِ البَلَدُ خَضْراءَ، يَسْتَظِلُّ المُسافِرونَ بِظِلِّها، وواحَةً خَضْراءَ مُزْدَهِرَةً، يَجْنونَ ثِمارَها. زَرَعَني جَدُّكَ الأَكْبَرُ هُنا مَعَ ما زُرِعَ مِنْ أَشْجارٍ. كُنْتُ بَذْرَةً صَغيرَةً كَبِرَتْ ونَمَتْ، وامْتَدَّتْ بِجُذورِها في أَرْضِكُمْ، شاهَدْتُ مَوْلِدَ جَدِّكَ وأَبيكَ، ومَوْلِدَ إِخْوَتِكَ جَميعًا ثُمَّ مَوْلِدَكَ. رَأَيْتُكَ طِفْلًا يَحْبو ثُمَّ صَبِيًّا يافِعًا، شارَكْتُكُمُ الأَفْراحَ والأَحْزانَ. كانَ المَدْعُوّونَ يَسْتَظِلّونَ بِظِلّي يَوْمَ زِفافِكَ، والمُشَيِّعونَ يَحْتَمونَ بي مِنْ حَرارَةِ الشَّمْسِ يَوْمَ تَشْييعِ جُثْمانِ أَبيكَ.

عِشْتُ وشاهَدْتُ، وشارَكْتُ، وتَأَلَّمتُ وفَرِحْتُ بِجَميعِ الأَحْداثِ الَّتي مَرَّتْ بِكَ وبِعائِلَتِكَ. رَوَتْني الدُّموعُ تارَةً، دُموعُ الحُزنِ أَوِ الفَرَحِ، ورَواني عَرَقُ

العَمَلِ والجَهْدِ الَّذي بَذَلَهُ أَجْدادُكَ وأَبوكَ. لَسْتُ مُجَرَّدَ شَجَرَةٍ، يا بُنَيَّ، ولَكِنَّني الأَصْلُ والتّاريخُ والجُذورُ والحَياةُ نَفْسُها، فَكَيْفَ تُريدُ أَنْ تَقْطَعَني؟ أَتَتَخَلّى عَنْ جُذورِكَ وأَصْلِكَ وتاريخكَ؟ بِاللهِ عَلَيْكَ لا تَفْعَلْ!»

«أَقْطَعُكِ وأَزْرَعُ بَدَلًا مِنْكِ شَجَرَةً صَغيرَةً لا تَسْكُنُها الطُّيورُ.»

ورَفَعَ فَأْسَهُ، وهَوى عَلى جِذْعِ الشَّجَرَةِ، فاقْتَلَعَها. وبِمُجَرَّدِ سُقوطِها عَلى الأَرْضِ حَدَثَ ما لا يُصَدِّقُهُ عَقْلٌ ولا يَخْطِرُ عَلى بالٍ. أَتَدْرونَ ماذا حَدَثَ؟

بَدَأَ اللَّوْنُ الأَخْضَرُ يَتَلاشى مِنْ حَديقَتِهِ ثُمَّ مِنَ الحَدائِقِ المُجاوِرَةِ، ومِنَ الشّارِعِ، ومِنَ الحَيِّ، مِنَ البَلَدِ كُلِّهِ.

وعادَتِ البَلْدَةُ مُقْفِرَةً، وأَرْضُها بورًا جَدْباءَ لا زَرْعَ فيها ولا نَباتَ. فَهْوَ لَمْ يَقْتَلِعِ الشَّجَرَةَ فَحَسْبُ، ولَكِنِ اقْتَلَعَ جُذورَهُ، وأَصْلَهُ، وانْتِماءَهُ، وتاريخَهُ.

المَجْنونُ- العاقِلُ

لِكُلِّ إِنْسانٍ هَدَفٌ في الحَياةِ يَتَمَنّى تَحْقيقَهُ، أَوْ رَغْبَةٌ تَهْفو إِلَيْها نَفْسُهُ، فَفُلانٌ يُريدُ أَنْ يكونَ عالمًا مَشْهورًا، وآخَرُ يُريدُ أَنْ يَكونَ لاعِبَ كُرَةٍ تَتَخاطَفُهُ الأَنْدِيَةُ والمَلاعِبُ، وآخَرُ يُريدُ أَنْ يُصْبِحَ كاتِبًا تَقْرَأُ النّاسُ كُتُبَهُ كُلَّها، وهَذا يَرْغَبُ في أَنْ يَكونَ طَبيبًا، وَذاكَ رَسّامًا مَوْهوبًا، ولَكِنْ حَسّانُ كانَتِ لَهُ رَغْبَةٌ أُخْرى غَريبَةٌ، غَيْرُ مَأْلوفَةٍ، فَهُوَ يُريدُ أَنْ يَكونَ مَجْنونًا! مَجْنونًا لِكَيْ يَتْرُكَهُ النّاسُ في سَلامٍ، مَجْنونًا لِكَيْ يَسْتَطيعَ قَوْلَ الحَقيقَةِ، مَجْنونًا لِكَيْ يَفْعَلَ ما يُريدُ، في الوَقْتِ الَّذي يُريدُهُ، كَيْفَما شاءَ دونَ أَنْ يُحاسِبَهُ أَحَدٌ، أَوْ يُعاقِبَهُ أَحَدٌ، فالمَجْنونُ غَيْرُ مُدْرِكٍ لأَفْعالِهِ، غَيْرُ مَسْئولٍ عَنْها.

وعَمِلَ حَسّانُ عَلى أَنْ يَعْتَقِدَ النّاسُ أَنَّهُ مَجْنونٌ،

فَكانَ يَقولُ كَلامًا غَريبًا، غَيْرَ مَفْهومٍ، ويَأْتي بِأَفْعالٍ أَكْثَرَ غَرابَةٍ حَتّى تُحَقِّقَ لَهُ ما يُريدُ. وأَصْبَحَ الجَميعُ يَعْتَقِدونَ اعْتِقادًا راسِخًا أَنَّ حسّانَ مَجْنونٌ. ولَكِنَّهُ كانَ المَجْنونَ العاقِلَ الَّذي يُدْرِكُ كُلَّ شَيْءٍ ويَفْهَمُ كُلَّ شَيْءٍ، وَيَضْحَكُ هُوَ عَلى النّاسِ قَبْلَ أَنْ يَضْحَكوا عَلَيْهِ.

وذاتَ يَوْمٍ، خَرَجَ حَسّانُ في الصَّباحِ راكِبًا حِمارَهُ، قاصِدًا السّوقَ حَيْثُ يَتَجَمَّعُ النّاسُ، البائِعونَ والمُشْتَرونَ مِنْ كُلِّ البِلادِ، فَيَرى ويُشاهِدُ ويَضْحَكُ عَلَيْهِمْ وهُمْ يَعْتَقِدونَ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذينَ يَضْحَكونَ عَلَيْهِ. في هَذا السّوقِ يَجْتَمِعُ النّاسُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ ولَوْنٍ، الغَنِيُّ والفَقيرُ، اللِّصُّ والشَّريفُ، الحاكِمُ والمَحْكومُ. في السّوقِ، تَحْدُثُ الأَعاجيبُ والغَرائِبُ وهُوَ يَتَفَرَّجُ مِنْ بَعيدٍ، ويُفَكِّرُ في حالِ الخَلْقِ.

ورَأى مِنْ بَعيدٍ كَبيرَ التُّجّارِ، مُمْتَطِيًا جَوادَهُ، لابِسًا ما غَلا مِنَ الثِّيابِ، آتِيًا كعادَتِهِ لِشِراءِ أَفْضَلِ ما في السّوقِ مِنْ بَضائِعَ، وخَيْرِ ما فيهِ لِيَبيعَهُ لِسادَةِ القَوْمِ بِأَثْمانٍ مُضاعَفَةٍ، فَيَكْسِبُ ويَزْدادُ ثَراءً عَلى ثَراءٍ.

وعَلى حافَةِ الطَّريقِ، كانَتْ هُناكَ امْرَأَةٌ غَريبَةٌ، لَمْ يَرَها مِنْ قَبْلُ تَجْلِسُ وقَدْ وَضَعَتْ أَمامَها بِضاعَتَها مِنَ الأَواني الفَخّارِيَّةِ زاهِيَةِ الأَلْوانِ مُتْقَنَةِ الصُّنْعِ، الَّتي لَمْ يُشاهِدْ مَثيلًا لَها مِنْ قَبْلُ. والْتَفَّ النّاسُ حَوْلَها يُقَلِّبونَ البِضاعَةَ وتُعْجِبُهُمْ، ولَكِنْ سُرْعانَ ما يَبْتَعِدونَ عِنْدَما يَعْرِفونَ ثَمَنَها، فَأَسْعارُها غالِيَةٌ لا يَقْدِرونَ عَلَيْها، فَاكْتَفوا بالمُشاهَدَةِ وإِطْلاقِ صَيْحاتِ الإِعْجابِ.

وتَفَرَّقَ الجَمْعُ عِنْدَما اقْتَرَبَ كَبيرُ التُّجّارِ ومَرَّ بَيْنَ الصُّفوفِ حَتّى وَصَلَ إِلى حَيْثُ تَجْلِسُ المَرْأَةُ، وأَخَذَ يَتَفَحَّصُ الأَوانِيَ المَعْروضَةَ، وأَدْرَكَ أَنَّ صانِعَها فَنّانٌ ماهِرٌ، وأَنَّها سَتُعْجِبُ بِلا شَكٍّ سادَةَ القَوْمِ، وسَتُمَكِّنُهُ مِنَ الرِّبْحِ الوَفيرِ.

سَأَلَ كَبيرُ التُّجّارِ المَرْأَةَ: «مِنْ أَيِّ بَلَدٍ أَنْتِ؟»

«مِنْ بِلادِ اللهِ الواسِعَةِ.»

«ومَنْ صانِعُ هَذِهِ الأَواني؟»

«عَبْدٌ مِنْ عِبادِ اللهِ.»

«ومِنْ أَيٍّ مادَّةٍ صَنَعَها؟»

«مِنْ خَيْراتِ أَرْضِ اللهِ.»

اغْتاظَ كَبيرُ التُّجّارِ مِنْ إِجاباتِ المَرْأَةِ وأَرادَ أَنْ يُلَقِّنَها دَرْسًا، فَأَمْسَكَ بِإِناءٍ كَبيرٍ جَميلٍ لِلْغايَةِ، وأَلْقى به في الأَرْضِ، ولكِنْ لِدَهْشَتِهِ لَمْ يَنْكَسِرْ كَما كانَ يَتَوَقَّعُ، ولَمْ يَحْدُثْ بِهِ خَدْشٌ. وأَخَذَ إناءً ثانِيًا وثالِثًا ورابِعًا، يَرْميه الواحِدَ تِلْوَ الآخَرِ، ولكِنْ لا يَنْكَسِرُ، ويَعودُ إِلى مَكانِهِ سَليمًا.



دُهِشَ كَبيرُ التُّجّارِ، دُهِشَ النّاسُ جَميعًا، وصاحَ حَسّانُ: «اللهُ أَكْبَرُ، أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ ظالِمٍ، أَكْبَرُ

مِنْ كَبيرِ التُّجّارِ ومِنْ كُلِّ إِنْسانٍ يَتَباهى بِقُوَّتِهِ.»

اغْتاظَ كَبيرُ التُّجّارِ، وأَرادَ أَنْ يَفْتِكَ بحَسّانَ، ولَكِنْ أَنْقَذَهُ تَدَخُّلُ النّاسِ الَّذينَ حالوا بَيْنَهُ وبَيْنَ كَبيرِ التُّجّارِ قائِلينَ: «اتْرُكْهُ لِشَأْنِهِ، أَتُحاسِبُ مَجْنونًا، غَيْرَ مَسْئولٍ عَنْ أَفْعالِهِ؟ اتْرُكْهُ لِشَأْنِهِ بِاللهِ عَلَيْكَ.»

ابْتَعَدَ حَسّانُ بِسُرْعَةٍ وهُوَ يَضْحَكُ ضِحْكَةً عَجيبَةً مُتَظاهِرًا بِالجُنونِ، وأَخَذَ يُفَكِّرُ في أَواني البائِعَةِ... تِلْكَ الأَواني الَّتي لا تَنْكَسِرُ مُحاوِلًا أَنْ يَجِدَ تَفْسيرًا لِذَلِكَ، ولَكِنْ دونَ جَدْوى، فَقَرَّرَ أَنْ يَنْتَظِرَ حَتّى يَخْلُوَ المَكانُ ويُحاوِلَ أَنْ يَسْأَلَها عَنْ سِرِّ ذَلِكَ، ولَكِنْ عِنْدَ عَوْدَتِهِ، لَمْ يَجِدْ لَها أَثَرًا.

وفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي، ذَهَبَ إلى السّوقِ حَيْثُ كانَتْ تَجْلِسُ المَرْأَةُ، ولَكِنَّهُ وَجَدَ بَدَلًا مِنْها صَيّادًا يَبيعُ سَمَكًا غَريبَ الشَّكْلِ واللَّوْنِ، لَمْ يَرَ لَهُ مَثيلًا مِنْ قَبْلُ.

والْتَفَّ النّاسُ حَوْلَ الصَّيّادِ يَنْظُرونَ إلى السَّمَكِ في

دَهْشَةٍ وإِعْجاب. سَمَكٌ زاهي الأَلْوانِ، مِنْهُ الأَحْمَرُ والأَخْضَرُ والأَصْفَرُ، والأَزرَقُ مُتَنَوِّعُ الأَشْكالِ، فَهُوَ أَحْيانًا يَبْدو مُسْتَديرًا أَوْ مُثَلَّثًا أَوْ مُرَبَّعًا... شَيءٌ عَجيبٌ جِدًّا.

وَقَفَ حَسّانُ بَيْنَ النّاسِ، يَتَعَجَّبُ مِثْلَهُمْ وفَجْأَةً أَفْسَحَ النّاسُ مَكانًا لِشَخْصٍ مُسِنٍّ يَلْبَسُ عِمامَةً كَبيرَةً.

إِنَّهُ قاضي القُضاةِ جاءَ لِيُشاهِدَ هَذا السَّمَكَ العَجيبَ.

وبادَرَ قاضي القُضاةِ الصَّيّادَ قائِلًا: «مِنْ أَيِّ بَلَدٍ أَتَيْتَ؟»

«مِنْ بِلادِ اللهِ الواسِعَةِ.»

«ومِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ بِهَذا السَّمَكِ العَجيبِ؟»

«مِنْ بِحارِ اللهِ.»

«وكَيْفَ تَمَكَّنْتَ مِنْ صَيْدِهِ؟»

«اصْطَدْتُهُ بِعَوْنِ اللهِ.»

«أَعْطِني مِنْهُ ثَلاثَ سَمَكاتٍ أُقَدِّمُها هَدِيَّةً لِلسُّلْطانِ.»

«لَنْ تَقْدِرَ عَلى ثَمَنِهِ، إِنَّهُ مُرْتَفِعٌ جِدًّا.»

«بِكَمِ السَّمَكَةُ؟»

«بِأَلْفِ دينارٍ.»

كانَ الثَّمَنُ فِعْلًا مُرْتَفِعًا، ولَكِنْ قاضي القُضاةِ فَكَّرَ في سَعادَةِ السُّلْطانِ بِهَذا السَّمَكِ، وتَوَقَّعَ أَنْ يُجْزِلَ لَهُ العَطاءَ وَيُكافِئَهُ عَلى هَذِهِ الهَدِيَّةِ، فَتَرَدَّدَ قَليلًا ثُمَّ دَفَعَ الثَّمَنَ المَطْلوبَ.

وَضَعَ الصَّيّادُ السَّمَكَ في سَلَّةٍ وغَطّاها بِقِطْعَةٍ مِنَ القُماشِ، وناوَلَها لِقاضي القُضاةِ، ثُمَّ جَمَعَ ما تَبَقّى مِنْ سَمَكٍ، واخْتَفى بَعيدًا عَنِ الأَنْظارِ في سُرْعَةِ البَرْقِ.



أَخَذَ قاضي القُضاةِ هَدِيَّتَهُ الثَّمينَةَ، وتَوَجَّهَ في الحالِ إلى قَصْرِ السُّلطانِ، وهُوَ يُفَكِّرُ في المُكافَأَةِ الَّتي سَيَحْصُلُ عَلَيْها مُقابِلَ هَذِهِ الهَدِيَّةِ الغَريبَةِ. أَيَطْلُبُ عَرَبَةً تَجُرُّها الجِيادُ، أَمْ قَصْرًا فَخيمًا، أَمْ نُقودًا... أَمْ يَطْلُبُ يَدَ الأَميرَةِ لابْنِهِ؟ لَنْ يَرْفُضَ لَهُ السُّلْطانُ طَلَبًا بَعْدَ هَذِهِ الهَدِيَّةِ، فَهُوَ يُحِبُّ الأَشْياءَ الغَريبَةَ الَّتي لا يَمْلِكُها أَحَدٌ غَيْرُهُ. كانَ قاضي القُضاةِ مُسْتَغْرِقًا في التَّفْكيرِ فَلَمْ يَتَبَيَّنْ أَنَّ هُناكَ شَخْصًا يَتَتَبَّعُهُ، ويَمْشي خَلْفَهُ مُنْذُ أَنْ تَرَكَ السّوقَ. إِنَّه حَسّانُ.

كانَ حَسّانُ يُريدُ أَنْ يَعْرِفَ ماذا سَيَفْعَلُ السُّلْطانُ بَعْدَ أَنْ دُهِشَ مِنْ رَدِّ الصَّيّادِ عَلى أَسْئِلَةِ قاضي القُضاةِ؛ لأَنَّ إِجاباتِهِ كانَتْ قَريبَةً مِنْ عِباراتِ بائِعَةِ الأَمْسِ. وشَعَرَ أَنَّ في الأَمْرِ شَيْئًا، ولَكِنْ لا يَدْري ما هُوَ. وعِنْدَ القَصْرِ، وبَعْدَ دُخولِ قاضي القُضاةِ، تَسَلَّقَ حَسّانُ شَجَرَةً تُمَكِّنُهُ مِنْ رُؤْيَةِ ما يَحْدُثُ داخِلَ القَصْرِ، وانْتَظَرَ.

دَخَل قاضي القُضاةِ عَلى السُّلْطانِ وهُوَ يَبْتَسِمُ

ابْتِسامَةٍ واثِقَةٍ، ويَصيحُ قائِلًا: «مَوْلايَ سَأُقَدِّمُ لَكَ هَدِيَّةً رائِعَةً، أَرْجو أَنْ تُعْجِبَكَ.»

وتَقَدَّمَ مِنَ السُّلْطانِ وأَعْطاهُ السَّلَّةَ. فَتَحَ السُّلْطانُ السَّلَّةَ وتَبَدَّلَتْ مَلامِحُ وَجْهِهِ، وبَدا عَلَيْهِ الغَضَبُ بَدَلًا مِنَ السُّرورِ.

دُهِشَ قاضي القُضاةِ وسَأَلَهُ: «أَلَمْ يُعْجِبْكَ هَذا السَّمَكُ، يا مَوْلاي؟ لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُفْرِحُكَ، فَلَمْ يَرَ أَحَدٌ مِثْلَهُ مِنْ قَبْلُ.»

«سَمَكٌ؟ أَتَقولُ سَمَكٌ؟ أُنْظُرْ إِلى السَّلَّةِ.. انْظُرْ ماذا وَجَدْتُ بِداخِلِها. أَتَمْزَحُ مَعي أَيُّها الشَّقِيُّ!»

نَظَرَ قاضي القُضاةِ إِلى السَّلَّةِ، فَوَجَدَ بِها مَجْموعَةً مِنَ الحِجارَةِ- الحِجارَةِ فَقَطْ ولا شَيْءَ غَيْرَها، فَأَخَذَ يَعْتَذِرُ مُتَلَعْثِمًا: «كانَ.. كانَ في السَّلَّةِ سَمَكٌ.. سَمَكٌ مُلَوَّنٌ، يا مَوْلاي. لا أَعْرِفُ.. لا أَعْرِفُ.. ماذا حَدَثَ؟ لا أَعْرِفُ.»

«يا حُرّاسُ، ضَعُوهُ في السِّجْنِ حَتّى يَتَعَلَّمَ كَيْفَ يَمْزَحُ مَعَ وَلِيِّ نِعْمَتِهِ؟»

«المَعْذِرَةَ.. المَعْذِرَةَ.. السَّماحَ يا مَوْلاي.. السَّماحَ...»

وَلَوْلا تَدَخُّلُ الوَزيرِ والحاضِرينَ لَكانَ قاضي القُضاةِ في زِنْزانَةٍ.

«عَفَوْتُ عَنْكَ.. اُغْرُبِ الآنَ عَنْ وَجْهي.»

خَرَجَ قاضي القُضاةِ مُسْرِعًا وهُوَ يُكَلِّمُ نَفْسَهُ مَذْهولًا. وعِنْدَما مَرَّ تَحْتَ الشَّجَرَةِ الَّتي يَجْلِسُ فَوْقَها حَسّانُ. أَطْلَقَ هَذا الأَخيرُ ضَحْكَةً وهُوَ يَقولُ: «تَمَنَّيْتَ ونِلْتَ، يا قاضي القُضاةِ، أَأَعْجَبَتْكَ المُكافَأَةُ؟ ها.. ها.. ها.»

اغْتاظَ قاضي القُضاةِ وأَرادَ أَنْ يَفْتِكَ بِحَسّانَ، ولَكِنَّهُ كانَ فَوْقَ الشَّجَرَةِ، وكانَ عَلَيْهِ أَنْ يُسْرِعَ مُبْتَعِدًا عَنِ السُّلْطانِ وقَصْرِهِ، ويَعودَ لِيَرْتاحَ في مَنْزِلِهِ بَعْدَ هذا المَوْقِفِ العَصيبِ الَّذي تَعَرَّضَ لَهُ.

بَعْدَ انْصرافِ قاضي القُضاةِ، أَخَذَ حَسّانُ يُفَكِّرُ: ماذا حَدَثَ؟ كَيْفَ تَحَوَّلَ السَّمَكُ إِلى حِجارَةٍ؟ لَقَدْ رَأى بِنَفْسِهِ الصَّيّادَ يَضَعُهُ في السَّلَّةِ. ماذا حَدَثَ؟

وفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي، كانَ حَسّانُ يَجوبُ السّوقَ باحِثًا عَنْ شَيْءٍ ما حَتّى وَجَدَهُ. وَجَدَ بائِعًا مُسِنًّا يَبيعُ أَقْمِشَةً خُيوطُها مِنْ ذَهَبٍ وفِضَّةٍ، لَمْ يَرَ أَحَدٌ مِثْلَ جَمالِها، ولا أَلْوانِها، ولا بَديعِ صُنْعِها.

اقْتَرَبَ حَسّانُ مِنَ العَجوزِ، وأَخَذَ يَتَفَرَّجُ عَلى البِضاعَةِ مَبْهورًا. وتَجَمَّعَ النّاسُ والْتَفّوا حَولَ البائِعِ العَجوزِ، لا يَجْرُؤونَ عَلى الشِّراءِ مُدْرِكينَ أَنَّ الثَّمَنَ لا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ في مُتَناوَلِ أَيْديهِمْ.

وتَفَرَّقَ الجَمْعُ مِنَ النّاسِ حينَ أَقْبَلَ الوَزيرُ لِيُشاهِدَ هَذِهِ الأَقْمِشَةَ الفَريدَةَ، وبادَرَ البائِعَ العَجوزَ قائِلًا:

«مِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟»

«مِنْ بِلادِ اللهِ.»

«مَنْ صانِعُ هَذِهِ الأقْمِشَةِ؟»

«عَبْدٌ مِنْ عِبادِ اللهِ.»

«وكَيْفَ صَنَعَها؟»

«بِعَوْنِ اللهِ ومَشيئَتِهِ.»

«كَمْ ثَمَنُ المِتْرِ؟»

«ثَلاثَةُ آلافِ دينارٍ.»

«ثَلاثَةُ آلافِ دينارٍ.. يا لَهُ مِنْ ثَمَنٍ!»

هَمَّ الوَزيرُ بِالانْصِرافِ، ولَكِنَّهُ تَذَكَّرَ عُرْسَ ابْنَتِهِ، ورآها تَرْتدي ثَوْبًا مَصْنوعًا مِنْ هَذِهِ الأَقْمِشَةِ يَوْمَ عُرْسِها، وكَيْفَ سَتكونُ سَعيدَةً، وسَيَتَحَدَّثُ النّاسُ لِشُهورٍ طَويلَةٍ عَنِ العَروسِ وثَوْبِها، وكَيْفَ اشْتَرى أَبوها المِتْرَ الواحِدَ بِثَلاثَةِ آلافِ دينار... و... و...

قَدَّمَ الوَزيرُ النُّقودَ الَّتي تَكْفي لِشِراءِ عَدَدٍ مِنَ الأَمْتارِ يَصْلُحُ لِثَوْبِ زِفافِ ابْنَتِهِ، وأَخَذَ القُماشَ وانْصَرَفَ بَعْدَ أَنْ دَفَعَ.. كَمْ دَفَعَ؟ لَمْ يَتَبَيَّنْ لأَحَدٍ ما دَفَعَهُ الوَزيرُ،

فَلَقَدْ حَرَصَ عَلى أَنْ لا يَرى النّاسُ النُّقودَ. كانَ الوَحيدُ الَّذي رَأى وعَرَفَ هُوَ حَسّانُ. رَأى عَشْرةَ آلافِ دينارٍ يَتَناوَلُها البائِعُ.

وبَدَلًا مِنَ السَّيْرِ وَراءَ الوَزيرِ حَتّى مَنْزِلِهِ، سارَ وَراء البائِعِ المُسِنِّ مِنْ شارِعٍ إِلى شارِعٍ حَتّى خَرَجا مِنَ المَدينَةِ، عِنْدَئِذٍ اسْتَدارَ البائِعُ العَجوزُ فَجْأَةً ونادى عَلى حَسّانَ قائِلًا: «تَعال واتْبَعْني.»

فَتَبِعَهُ حَسّانُ حَتّى وَصَلا إِلى جِذْعِ شَجَرَةٍ كَبيرَةٍ، فَجَلَسا وحاوَلَ حَسّانُ أَنْ يَتَظاهَرَ بِالجُنونِ فَأَخَذَ يَضْحَكُ تارَةً ويُرَدِّدُ كَلامًا غَريبًا وعِباراتٍ لا مَعْنى لَها، فَقالَ لَهُ العَجوزُ: «كَفى يا بُنَيَّ. أَعْرِفُ أَنَّكَ عاقِلٌ، فَلا تَتَظاهَرْ أَمامي بِالجُنونِ، فَسَيَكونُ لَكَ شَأْنٌ آخَرُ. سَوْفَ تُساعِدُ النّاسَ، وسَيَعْتَمِدونَ عَلَيْكَ لِتُخَلِّصَهُمْ مِنَ الجوعِ والفَقْرِ.»

«أَنا؟ كَيْفَ؟»

«أَتَعْرِفُ أَوَّلًا ما سَيَحْدُثُ لِلْوَزيرِ عِنْدَ عَوْدَتِهِ إِلى مَنْزِلِهِ؟ وماذا سَيَجِدُ بَدَلًا مِنَ القُماشِ؟»

«سَيَجِدُ حِجارَةً هَذِهِ المَرَّةَ أَيْضًا مِثْلَ ما وَجَدَ قاضي القُضاةِ.»

«كَلا. سَيَجِدُ خَيْشًا.»

«خَيْشًا بَدَلًا مِنَ الأَقْمِشَةِ الَّتي دَفَعَ عَشَرَةَ آلافِ دينارٍ ثَمَنًا لَها.. كَيْفَ يَحْدُثُ هَذا.. كَيْفَ؟»

«اعْلَمْ أَنَّ المَرْأَةَ بائِعَةَ الأَواني والصَّيّادَ بائِعَ السَّمَكِ والعَجوزَ بائِعَ الأَقْمِشَةِ هُمْ نَفْسُ الشَّخْصِ.»

«أَأَنْتَ مِنَ الإِنْسِ أَمْ مِنَ الجانِّ؟ مَنْ أَنْتَ؟»

«عَبْدٌ مِنْ عِبادِ اللهِ.»

«مِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ؟»

«مِنْ بِلادِ اللهِ الواسِعَةِ، ولا يَهُمُّ مِنْ أَيْنَ أَتَيْتُ ولا مَنْ أَكونُ ولَكِنَّني هُنا لِمُساعَدَتِكُمْ. لَقَدْ طَغَى السُّلْطانُ

وحاشِيَتُهُ، إِنَّهُمْ يَكْنِزونَ المالَ في حينِ تَجوعُ الرَّعِيَّةُ، وأَنْتَ تُدْرِكُ جَيِّدًا ما أَقولُ، فَأَنْتَ تَعْرِفُ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ إِنْسانٍ آخَرَ أَحْوالَ النّاسِ وما يُعانونَ؛ لِذَلِكَ اخْتَرْتُكَ لِمُساعَدَتِهِمْ.»

«لِمُساعَدَتِهِمْ؟ كَيْفَ يَكونُ ذَلِكَ وأَنا لا حَوْلَ لي وَلا قُوَّةَ والجَميعُ يَعْتَقِدُ أَنَّني مَجْنونٌ.»

«لَقَدْ أَخَذْتُ ثَمانِيَةَ عَشَرَ أَلْفَ دينارٍ مِنْ قاضي القُضاةِ والوَزيرِ، بَلِ اسْتَرْدَدْتُ هَذا المَبْلَغَ، فَلَقَدْ أَخَذوهُ مِنَ الرَّعِيَّةِ بِالقُوَّةِ والظُّلْمِ وبدونِ وَجْهِ حَقٍّ؛ وعَلَيْكَ أَنْ تُعيدَ هَذا المالَ إِلى أَصْحابِهِ. إِنَّكَ تَجوبُ البِلادَ وتَعْرِفُ أَحْوالَ النّاسِ، وتَعْرِفُ الفَقيرَ المُحتاجَ والمِسْكينَ والجائِعَ والمَريضَ، كَما أَنَّ النّاسَ لا تَخْشاكَ، ولا تَهْتَمُّ بِوُجودِكَ فَهُمْ يَعْتَقِدونَ أَنَّكَ مَجْنونٌ. خُذِ النُّقودَ. إِنَّني أَعْرِفُ أَنَّكَ سَتَجِدُ الطَّريقَةَ الَّتي تَرُدُّها بِها إِلَيْهِمْ بِالعَدْلِ وسَتُعْطيها لِمَنْ يَسْتَحِقُّها.»

«ولَكِنْ مَنْ أَنْتَ؟»

«عَبْدٌ مِنْ عِبادِ اللهِ.»

قالَها واخْتَفى عَنِ الأَنْظارِ. أَخَذَ حَسّانُ النُّقودَ وعادَ إِلى المَدينَةِ.

كانَ اللَّيْلُ قَدْ أَسْدَلَ أَسْتارَهُ، والظَّلامُ يَعُمُّ المَكانَ والنّاسُ في مَنازِلِهِمْ. مَشى حَسّانُ يَتَحَسَّسُ طَريقَهُ حَتّى وَصَلَ إِلى أَحَدِ المَنازِلِ، وتَناهى إِلى سَمْعِهِ ما يَدورُ مِنْ حَديثٍ.

«إِنَّنا جائِعونَ، يا أُمّي، جائِعونَ.»

«ناموا وفي الصَّباحِ سَتَجِدونَ الطَّعامَ.»

«لَمْ نَأْكُلْ مُنْذُ أَمْسِ، لَنْ نَسْتَطيعَ النَّوْمَ. نَحْنُ جائِعونَ.»

«ناموا، يا أَطْفالي. إِنَّ فَرَجَ اللهِ لَقَريبٌ.»

نامَ الأَطْفالُ وهُمْ يَبْكونَ مِنَ الجوعِ. طَرَقَ حَسّانُ البابَ ولَمّا فَتَحَتْ لَهُ الأُمُّ قالَتْ لَهُ: «أَأَنْتَ أَيُّها

المَجْنونُ؟ ماذا تَصْنَعُ هُنا في هَذا الظَّلامِ؟ لَيْسَ لَدَيَّ طَعامٌ أُقَدِّمُهُ لَكَ. اِبْحَثْ عَمّا تُريدُ في مَكانٍ آخَرَ. هَيّا اذْهَبْ.»

نَظَرَ حَسّان إِلى الأُمِّ وأَعْطاها أَلْفَ دينارٍ دونَ أَنْ يَنْطِقَ كَلِمَةً وانْصَرَفَ.

عَقَدَتِ الفَرْحَةُ لِسانَ الأُمِّ، وأَخَذَتْ تَشْكُرُ اللهَ عَلى هَذِهِ النُّقودِ الَّتي جاءَتْ في وَقْتِها.

سارَ حَسّانُ في ظَلامِ اللَّيْلِ حَتّى وَصَلَ إِلى مَنْزِلٍ آخَرَ يَعْرِفُهُ وسَمِعَ هَذا الحِوارَ: «اصْبِرْ يا أَبي وتَحَمَّلْ سَأُحْضِرُ لَكَ غَدًا الدَّواءَ الَّذي وَصَفَهُ الحَكيمُ.»

«مِنْ أَيْنَ لَكِ يا ابْنَتي بِنُقودِ الدَّواءِ؟ لا تَهْتَمّي بي، سَيُعينُني اللهُ عَلى الصَّبْرِ.»

طَرَقَ حَسّانُ البابَ، ولَمّا فَتَحَتِ الابْنَةُ البابَ بادَرَتْهُ قائِلَةً: «حَسّانُ...ماذا تُريدُ؟ أَأَنْتَ جَوْعانُ؟ آسِفَةٌ لا يُوجَدُ عِنْدي سِوى شَرْبَةِ ماءٍ وكِسْرَةِ خُبْزٍ أُقَدِّمُها لَكَ.»

«ناوَلَ حَسّانُ الابْنَةَ أَلْفَ دينارٍ دونَ أَنْ يَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ ومَضى في طَرِيقِهِ.»

وعِنْدَ وُصولِهِ إِلى مَنْزِلٍ ثالِثٍ، اسْتَمَعَ حَسّانُ إِلى ما يَدورُ مِنْ حِوارٍ بَيْنَ أَهْلِهِ: «ماذا سَنَفْعَلُ لِزَواجِ ابْنَتِنا؟ لَقَد تَقَدَّمَ لَها الكَثيرونَ، ولَكِنَّنا نَعْجِزُ عَنِ الوَفاءِ بِالْتِزاماتِنا.»

«مِنْ أَيْنَ لَنا بِالنُّقودِ لِنَصْنَعَ لَها الثِّيابَ ونَشْتَرِيَ ما يَحْتاجُهُ العُرْسُ.»

«لَيْسَ بِإِمْكانِنا أَنْ نَصْنَعَ أَيَّ شَيْءٍ، سَيَنْصَرِفُ هَذا العَريسُ مِثْلَ الَّذي قَبْلَهُ ولَنْ يَعودَ مَرَّةً أُخرى. وسَتَبْكي ابْنَتُنا وتَذْبُلُ، ونَحْنُ مَكْتوفُو الأَيْدي، يا رَبُّ، الفَرَجَ مِنْ عِنْدِكَ.»

طَرَقَ حَسّانُ البابَ وناوَلَ الزَّوْجَيْنِ أَلْفَ دينارٍ دونَ أَنْ يَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ وتَرَكَهُما وهُما يَبْكِيانِ مِنَ الفَرَحِ.

ولما كانَ الفَجْرُ قَدِ اقْتَرَبَ، أَدْرَكَ حَسّانُ أَنَّ عَلَيْهِ العَوْدَةَ إِلى مَنْزِلِهِ قَبْلَ أَنْ يراهُ النّاسُ. وفي المَنْزِلِ، لَمْ يَغْمُضْ لَهُ جَفْنٌ قَبْلَ أَنْ يُحْصِيَ عَدَدَ النّاسِ الَّذينَ يَحْتاجونَ مُساعَدَتَهُ ويُدَوِّنَ أَسْماءَهُمْ حَسَبَ تَرْتيبِ حاجَتِهِمْ.

ومَضَتِ الأَيّامُ وحَسّانُ المَجْنونُ أَثْناءَ النَّهارِ والَّذي يَضْحَكُ عَلَيْهِ النّاسُ ويَسْتَغْرِبونَ أَفْعالَهُ، يَصيرُ لَيْلًا حَسّانَ العاقِلَ الَّذي يُساعِدُ المُحْتاجينَ ويَعْطِفُ عَلى الفُقَراءِ والمَساكينَ.

واسْتَمَرَّ الحالُ عَلى هَذا المِنْوالِ حَتّى وَشى بِهِ واشٍ، وأَبَلَغَ السُّلْطانُ أَنَّ حَسّانَ المَجْنونَ يُعْطي النُّقودَ لَيْلًا لِلْمُحْتاجينَ، فَتَرَبَّصَ بِهِ الحُرّاسُ وقَبَضوا عَلَيْهِ مُتَلَبِّسًا، وقادوهُ إِلى السُّلْطانِ الَّذي حَكَمَ عَلَيْهِ بِالسَّجْنِ مَدى الحَياةِ.

وأَصْبَحَ حَسّانُ المَجْنونُ في السِّجْنِ نِهارًا وحَسّانُ العاقِلُ يُوَزِّعُ الأَمْوالَ عَلى الفُقَراءِ والمُحْتاجينَ لَيْلًا.

لا تَسْأَلْني، يا صَديقي، كَيْفَ يَخْرُجُ مِنْ زِنْزانَتِهِ ولا تَسْأَلْني كَيْفَ يَعودُ إِلَيْها، ويَجِدونَهُ بِها في الصَّباحِ، فَأَنا لا أَعْرِفُ الإِجابَةَ.

ضاعَ العَدْلُ

خَرَجَ الحَطّابُ الفَقيرُ كَعادَتِهِ كُلَّ صَباحٍ ومَعَهُ حِمارُهُ؛ لِيَجْمَعَ الحَطَبَ مِنَ الغابَةِ المُجاوِرَةِ ويَعودَ لِيَبيعَهُ لِلنّاس لِيُشْعلوا بِهِ أَفْرانَهُمْ لِيَسْتَدْفِئوا بِهِ مِنْ بَرْدِ الشِّتاءِ، ولِيَطْهو عَلَيْهِ طَعامَهُمْ، أَوْ لِصناعَةِ الخُبْزِ الطّازَجِ والفَطائِرِ والحَلْوى لِيَحْصُلَ عَلى ما يَسُدُّ بِهِ جوعَهُ هُوَ وامْرَأَتِهِ الحُبْلى.

وكانَ يُفَكِّرُ فيما سَيَحْدُثُ لَهُ إذا وَضَعَتِ امْرَأَتُهُ مَوْلودًا، ومِنْ أَيْنَ لَهُ بِمَصاريفِ الوِلادَةِ واحْتِياجاتِها، فَما يَكْسِبُهُ يَكْفي ما يَحْتاجُهُ المَنْزِلُ مِنْ طَعامٍ وشَرابٍ، ولا شَيْءَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.

وبَيْنَما هُوَ مُنْهَمِكٌ في جَمْعِ الحَطَبِ، سَمِعَ صَوْتًا يَأْتي مِنْ ناحِيَةِ الشَّجَرَةِ الَّتي رَبَطَ بِها حِمارَهُ، فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ وَوَجَدَ لِصًّا يُحاوِلُ سَرِقَتَهُ، فَأَمْسَكَ بِهِ واقْتادَهُ إلى مَجْلِسِ القاضي.

ولمّا كانَ القاضي لا يَعْرِفُ العَدْلَ ويَسيلُ لُعابُهُ عِنْدَ رُؤْيَةِ المالِ، فَقَد اسْتَطاعَ اللِّصُّ رِشْوَتَهُ لِيَحْكُمَ بِبَراءَتِهِ، وبِأَنَّ الحِمارَ يَمْلِكُهُ اللِّصُّ ولَيْسَ الحَطّابُ!

كَيْفَ حَدَثَ ذَلِكَ؟ إِنَّها حِكايَةٌ طَريفَةٌ سَأَقُصُّها عَلَيْكُمْ: ذَهَبَ الحَطّابُ إلى القاضي مُمْسكًا بِاللِّصِّ وقالَ لَهُ: «يا سَيِّدي القاضي، لَقَدْ أَمْسَكْتُ بِهَذا اللِّصِّ وهُوَ يُحاوِلُ سَرِقَةَ حِماري. أَرْجوكَ، احْبِسْهُ حَتّى يَتَّقِيَ النّاسُ شَرَّهُ وشَرَّ أَمْثالِهِ مِنَ اللُّصوصِ الَّذينَ يَسْرِقونَ أَمْوالَهُمْ ومُمْتَلَكاتِهِمْ.»

وبَيْنَما كانَ الحَطّابُ يَتكلَّمُ مُوَجِّهًا كَلامَهُ لِلْقاضي، ويَشْرَحُ لَهُ كَيْفَ قَبَضَ عَلى اللِّصِّ، كانَ هَذا الأَخيرُ يُلَوِّح لِلْقاضي مِنْ وَراءِ ظَهْرِ الحَطّابِ بِصُرَّةِ نُقودٍ، ويَأْتي بِإِشاراتٍ بِيَدَيْهِ، فَهِمَ القاضي المَقْصودَ مِنْها، وأَدْرَكَ أَنَّهُ سَيَحْصُلُ عَلى هَذِهِ الصُّرَّةِ مِنَ اللِّصِّ إذا حَكَمَ بِبَراءَتِهِ، فَوَجَّهَ حَديثَهُ إلى الحَطّابِ قائِلًا: «أَمُتَأَكِّدٌ أَنْتَ أَنَّ الحِمارَ مِلْكٌ لَكَ.»

«نَعَمْ مُتَأَكِّدٌ، يا سَيِّدي، فَهُوَ عِنْدي مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ، يُلازِمُني كَظِلّي مُنْذُ الصَّباحِ الباكِرِ وحَتّى غُروبِ الشَّمْسِ، فَأَنا الَّذي أُطْعِمُهُ وأَسْقيهِ و...»

قاطَعَهُ اللِّصُّ قائِلًا: «بَلْ هُوَ لي، يا سَيِّدي القاضي. أَنا مالِكُهُ وهُوَ يَفْتَري عَلَيَّ. إِنَّه كاذِبٌ.»

«حَسَنًا، إِنَّ صاحِبَ الحِمارِ يَعْرِفُهُ جَيِّدًا ويَسْتطِعُ أَنْ يُمَيِّزَهُ مِنْ بَيْنِ عَشَراتِ الحَميرِ.»

«نَعَمْ.»

قالَها الرَّجُلانِ في نَفَسٍ واحِدٍ.

«مَنْ مِنْكُمْ يَعْرِفُ، إِذَنْ، عَدَدَ شَعَراتِ ذَيْلِ الحِمارِ؟»

دَهِشَ الحَطّابُ مِنْ سُؤالِ القاضي وأَجابَهُ: «يا سَيِّدي، أَنا أَعْرِفُ جَيِّدًا حِماري، وأَسْتَطيعُ أَنْ أُمَيِّزَهُ مِنْ بَيْنِ عَشَراتِ الحَميرِ، بَلْ مِئاتِ الحَميرِ، ولَكِنْ لَمْ يَخْطِرْ بِبالي يَوْمًا أَنْ أُحْصي عَدَدَ شَعَراتِ ذَيْلِهِ.»

قالَ اللِّصُّ فَرِحًا: «أَنا أَعْرِفُ عَدَدَ شَعَراتِ ذَيْلِ

الحِمارِ، إِنَّها مائَةُ شَعْرَةٍ- مِائَةُ شَعْرَةٍ بِالتَّمامِ والكَمالِ، يا سَيِّدي القاضي. إِنَّهُ حِماري أَعْرِفُهُ جَيِّدًا.»

«حَسَنًا، فَلْنَعُدَّ شَعَراتِ ذَيْلِ الحِمارِ.»

تَظاهَرَ القاضيُ بِعَدِّ شَعَراتِ الذَّيْلِ ثُمَّ صاحَ قائِلًا:

«بِالفِعْلِ إِنَّها مِائَةُ شَعْرَةٍ بِالتَّمامِ والكَمالِ لا تَنْقُصُ واحِدَةٌ ولا تَزيدُ واحِدَةٌ.»

واسْتَدارَ ناحِيَةَ اللِّصِّ قائِلًا: «إِنَّ الحِمارَ لَكَ: أَنْتَ فِعْلًا مالِكُهُ.»



لَمْ يُصَدِّقِ الحَطّابُ ما سَمِعَ، وأَخَذَ يُرَدِّدُ وهُوَ يَضْرِبُ كَفًّا على كَفٍّ:

«ضاعَ العَدْلُ..

العَدْلُ ضاعَ...»

وَعادَ إِلَى بَيْتِهِ في ذُهولٍ وهُوَ يُرَدِّدُ الجُمْلَةَ ذاتَها، وَعلى بابِ المَنْزِلِ اسْتَقْبَلَتْهُ القابِلَةُ فَرِحَةً، وسَأَلَتْهُ: «لَقَدْ وَضَعَتْ زَوْجَتُكَ غُلامًا. ماذا تُريدُ أَنْ تُسَمِّيَهُ؟»

«ضاعَ العَدْلُ... ضاعَ العَدْلُ...»

وأُطْلِقَ عَلى المَوْلودِ اسْمُ «ضاعَ العَدْلُ».

ومَرَّتِ الأَيّامُ والشُّهورُ والسُّنونَ، وكَبِرَ المَوْلودُ وأَصْبَحَ غُلامًا يُناديهِ النّاسُ بـ «ضاعَ العَدْلُ».

يَقولونَ: يا «ضاعَ العَدْلُ»، «ضاعَ العَدْلُ» جاءَ، «ضاعَ العَدْلُ»، ذَهَبَ..

وكانَ المَلِكُ الَّذي يَحْكُمُ البِلادَ رَجُلًا فاضِلًا عادِلًا حَكيمًا، يَخْشى رَبَّهُ في السِّرِّ والعَلانِيَةِ، وَلَكِنَّهُ لا يَعْرِفُ ما يَدورُ مِنْ وَراءِ ظَهْرِهِ في الممْلَكَةِ، والفَسادُ الَّذي انْتَشَرَ لا يَعْلَمُ عَنْهُ شَيْئًا، ولا ما يَفْعَلُهُ الوَزيرُ والقاضي وكَبيرُ التُّجّارِ، ويَعْتَقِدُ أَنَّ العَدْلَ يَسودُ في البِلادِ، وأَنَّ الأُمورَ عَلى ما يُرامُ.

وذاتَ يَوْمٍ، خَرَجَ «ضاعَ العَدْلُ» مَعَ رِفاقِهِ لِلَّعِبِ، وأَخَذوا يَنْتَقِلونَ هُنا وهُناكَ، ويَلْعَبونَ ويَتَصايَحونَ حَتّى وَصَلوا إِلى قَصْرِ السُّلْطانِ، فتَسَلَّلوا داخِلَ حَديقَةِ القَصْرِ، وكانَ المَلِكُ جالِسًا بِجِوارِ النّافِذَةِ، فَسَمِعَ الأَطْفالَ يَصيحونَ: «ضاعَ العَدْلُ...ضاعَ العَدْلُ...»

حَزِنَ المَلِكُ حُزْنًا شَديدًا، فَإِذا كانَ هَؤُلاءِ الصِّبْيَةُ الصِّغارُ يَعْتَقِدونَ أَنَّ العَدْلَ قَدْ ضاعَ فما بالُ الكِبارِ؟ وماذا يَظُنّونَ بِهِ؟ وكَيْفَ يَضيعُ العَدْلُ وهُوَ يُحاوِلُ جاهِدًا أَنْ يَكونَ مِنْ أَكْثَرِ النّاسِ عَدْلًا؟

أَمَرَ المَلِكُ الحُرّاسَ بِإِحْضارِ الصِّبْيَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ وجاءوا ووَقَفوا أَمامَ المَلِكِ وهُمْ يَرْتَعِدونَ مِنَ الخَوْفِ قائِلينَ:

«لَمْ نَفْعَلْ شَيْئًا.. لَقَدْ كُنّا نَلْعَبُ في حَديقَةِ القَصْرِ. لَنْ نَعودَ لِلَّعِبِ فيها مَرَّةً أُخْرى.»

«اسْمَعوا يا أَبْنائِيَ الصِّغارَ، إذا صَدَقْتُموني القَوْلَ سَأَتْرُكُكُمْ تَذْهَبونَ لِشَأْنِكُمْ. لماذا تَقولونَ ضاعَ العَدْلُ؟» أَجابَهُ الصِّبْيَةُ بِذُعْرٍ وهُمْ يُشيرونَ إِلى صاحِبِهِمْ: «إِنَّنا نُنادي عَلى صَديقِنا ضاعَ العَدْلُ، فَهَذا هُو اسْمُهُ.»

الْتَفَتَ المِلِكُ ناحِيَةَ الغُلامِ وسَأَلَهُ: «مَنْ أَنْتَ؟ ولماذا أُطْلِقَ عَلَيْكَ هَذا الاسْمُ؟»

«أَنا ابْنُ الحَطّابِ ولا أَعْرِفُ لِماذا أُطْلِقَ عَلَيَّ هَذا الاسْمُ.»

اسْتَدْعى المَلِكُ الحَطّابَ، وسَأَلَهُ: «لماذا سَمَّيْتَ ابْنَكَ بِهَذا الاسْمِ؟»

وقَصّ الحَطّابُ على المَلِكِ قِصَّتَهُ مَعَ الحِمارِ واللِّصِّ، وما حَكَمَ بِهِ القاضي، وكَيْفَ خَدَعاهُ وسَلَباهُ حِمارَهُ. وأَدْرَكَ المَلِكُ أَنَّهُ يَعْتَمِدُ على حاشِيَةٍ ظالِمَةٍ، فَأَلْقى بِقاضي القُضاةِ في السِّجْنِ وعَيَّنَ الحَطّابَ مَكانَهُ، وطَلَبَ مِنْهُ مُراقَبَةَ حاشِيَتِهِ ورَفْعَ بَيانٍ إِلَيْهِ عَمّا يَحْدُثُ في البِلادِ وأَحْوالِ العِبادِ يَوْمِيًّا.

مَرَّتِ الأَعْوامُ، والحَطّابُ يَقومُ بِعَمَلِهِ على خَيْرِ وَجْهٍ، حَيْثُ نَجَحَ في القَضاءِ على الفَسادِ والمُفْسِدينَ، وسادَ العَدْلُ البِلادَ، فأرادَ المَلِكُ مُكافَأَةَ الحَطّابِ فَعَرَضَ عَلَيْهِ زَواجَ كُبْرى بَناتِهِ مِنَ ابْنِهِ «ضاعَ العَدْلُ»، ولَكِنْ بِشَرْطٍ أَنْ يُغَيِّرَ اسْمَهُ. فَما الاسْمُ الَّذي تَقْتَرِحُهُ، يا صَديقي؟

عَلّامُ الغُيوب

لَمْ يَكُنِ المَلِكُ سَعيدًا بِالرَّغْمِ مِمّا مَنَحَهُ اللهُ مِنْ خَيْراتِ الدُّنْيا، فَهُوَ يَحْكُمُ مَمْلَكَةً مُتَرامِيَةَ الأَطْرافِ، ويَعيشُ في رَخاء وسَعَةٍ لا نَظيرَ لَهُما، فالقَصْرُ واسِعٌ عَظيمٌ، يَموجُ بِالخَدَمِ والحَشَمِ، وتُحيطُهُ حَديقَةٌ غَنّاءُ، فيها مِنَ الثِّمارِ والفاكِهَةِ ما لَذَّ وطابَ، تَشْرَحُ الصَّدْرَ بِزُهورِها اليانِعَةِ، وتُمَتِّعُ النَّظَرَ بِجَمالِها الباهِرِ.

وقَدْ رَزَقَهُ اللهُ زَوْجَةً جَميلَةً صالِحَةً وبَنينَ وبَناتٍ تَقَرُّ بِهِمُ العُيونُ، وتُسَرُّ بِهِمُ النُّفوسُ. لا تَكادُ تَجِدُ مُتْعَةً مِنْ مُتَعِ الحَياةِ الدُّنْيا تَنْقُصُهُ، ومَعَ ذَلِكَ لا يَشْعُرُ بِالسَّعادَةِ وراحَةِ البالِ، واطْمِئْنانِ الخاطِرِ! هُناكَ شَيْءٌ يُنَغِّصُ عَلَيْهِ حَياتَهُ، ويَقُضُّ مَضْجَعَهُ، فَلا يَعْرِفُ النَّوْمُ طَريقَهُ إِلَيْهِ، ولا يَعْرِفُ الابْتِسامُ طَريقًا إِلى شَفَتَيْهِ، فَهُوَ دائِمًا حَزينٌ مُتَكَدِّرٌ، يَكادُ يَفْقِدُ حَتّى القُدْرَةَ عَلى الكَلامِ.

اسْتَقدَموا الأَطِبّاءَ مِنْ كُلِّ أَنْحاءِ المَمْلَكَةِ، ولَكِنَّهُمْ أَجْمَعوا عَلى أَنَّهُ في صِحَّةٍ جَيِّدَةٍ ولَيْسَ بِهِ أَيُّ مَرَضٍ ظاهِرٍ وإِنَّما هُناكَ شَيءٌ يَشْغَلُ بالَهُ ويَخْشاهُ، هُوَ سَبَبُ هَذِهِ الحالَةِ مِنَ الهَمِّ والحُزْنِ. حاوَلَ الجَميعُ مَعْرِفَةَ ما يُعَكِّرُ صَفْوَهُ، ويُفْسِدُ سَعادَتَهُ ولَكِنْ دونَ جَدْوى.

بَيْنَما كانَ جالِسًا في حُجْرَتِهِ لا يَسْتَطيعُ النَّوْمَ ذاتَ لَيْلَةٍ، اقْتَرَبَتْ مِنْهُ زَوْجَتُهُ وسَأَلَتْهُ عَمّا بِهِ: «بِاللهِ عَلَيْكَ، صارِحْني بِالحَقيقَةِ، وأَفْضِ إِلَيَّ بِما يَشْغَلُكَ، فَلَعَلَّني أَسْتَطيعُ أَنْ أَجِدَ حَلًّا وعِلاجًا لِمُشْكِلَتِكَ.»

«لَنْ يَسْتَطيعَ أَحَدٌ أَنْ يريحُني مِمّا أَنا فيهِ، أَوْ يَجِدَ حَلًّا لِما يَشْغَلُني.»

«رُبَّما اسْتَطَعْنا، وحَتّى إِنْ لَمْ نَسْتَطِعْ سَتَكونُ قَدْ تَخَلَّصْتَ مِنَ الحِمْلِ الَّذي يُثْقِلُ كاهِلَكَ، بالاعْتِرافِ والإِفْضاءِ، فَأَحْمِلُهُ مَعَكَ وأُخَفِّفُهُ عَنْكَ. جَرِّبْ ولَنْ تَخْسَرَ شَيْئًا.»

«حَسَنًا، يا زَوْجَتِيَ العَزيزَةَ، سَأَقولُ لَكِ، ولَكِنَّكِ لَنْ تَسْتَطيعي أَنْ تَفْعَلي شَيْئًا. إِنَّ ما أَخْشاهُ هُوَ نِهايَةُ كُلِّ كائِنٍ حَيٍّ، إِنَّ ما أَخْشاهُ هَوَ المَوْتُ.. نَعَمْ أَخْشى المْوتَ، فَأَفْقِدُ بِذَلِكَ كُلَّ هَذِهِ النِّعَمِ والأَمْلاكِ والثَّرواتِ. أَخْشَى أَنْ أَتْرُكَ ما حَرَصْتُ عُمْري كُلَّهُ عَلى جَمْعِهِ، أَخْشى أَنْ أُفارِقَ مالي وقُصوري.. و.. و..»

انْخَرَطَ المَلِكُ في بُكاءٍ مَريرٍ، وحاوَلَتْ زَوْجَتُهُ مُواساتِهِ والتَّسْرِيَةَ عَنْهُ: «قُلْ لي ماذا أَسْتَطيعُ أَنْ أَفْعلَ لَكَ. ما الشَّيْءُ الذَّي سَيُعيدُ إِلَيْكَ ابْتِسامَتَكَ ويُخَلِّصُكَ مِنْ هَذا الحُزْنِ العَميقِ؟»

«أَنْ أَعْرِفَ عُمْري! نَعَمْ أُريدُ أَنْ أَعْرِفَ عُمْري. أَعْرِفَ كَمْ مِنَ السَّنَواتِ يَتَبَقّى لي في هَذِهِ الحَياةِ.»

«أَسْتَغْفِرُ اللهَ العَظيمَ. إِنَّهُ وَحْدَهُ عَلّامُ الغُيوبِ ولا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ أَنْ يَعْرِفَ عُمْرَهُ، وما تَدْري نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَدًا، وما تَدْري نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَموتُ، ولا مَتى تَموتُ، فَلِكُلِّ نَفْسٍ أَجَلٌ مُسَمّى لا يَتَقَدَّمُ ولا يَتَأَخَّرُ.»

«سَأَعْرِفُ عُمْري... لَقَدْ قَرَّرْتُ ذَلِكَ... يا وَزيرُ، يا وَزيرُ... أَحْضِروهُ حالًا... أَحْضِروهُ حالًا...»

حَضَرَ الوَزيرُ مَذْعورًا، لا يَعْرِفُ ما الذَّي جَعَلَ المَلِكَ يَطْلُبُهُ في هَذا الوَقْتِ المتَأَخِّرِ مِنَ اللَّيْلِ.

«قُلْ لِلْمُنادي أَنْ يَجوبَ البِلادَ ويُحْضِرَ جَميعَ العَرّافينَ والمُنَجِّمين. مَنْ يَسْتَطيعُ أَنْ يَعْرِفَ عُمْري، سَتكونُ لَهُ مُكافَأَةٌ كَبيرَةٌ، مِثْلُ وَزْنِهِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ..»

بَدَأَ المُنادي يَجوبُ البِلادَ مُعْلِنًا: «يا مَعْشَرَ العَرّافينَ، يا مَعْشَرَ المَنجِّمينَ، مَنِ اسْتَطاعَ مِنْكُمْ مَعْرِفَةَ عُمْرِ المَلِكِ سَيَحْصُلُ عَلى مِثْلِ وزْنِهِ ذَهَبًا وفِضَّةً.»

كانَ الجَميعُ يَعْلَمونَ أَنَّهُ أَمْرٌ مُسْتَحيلٌ فَلَمْ يَتَقَدَّمْ أَحَدٌ. انْتَظَرَ المَلِكُ ثَلاثَةَ أَيّامٍ، فَلَمّا لَمْ يَحْضُرْ أَحَدٌ طَلَبَ الوَزيرَ وقالَ لَهُ: «أَحْضِرْ حالًا المُنَجِّمينَ والعَرّافينَ ولَوْ بِالقُوَّةِ... حالًا... أَسَمِعْتَ؟»

جاءَ العَرّافُ الأَوَّلُ، ودَخَلَ عَلى المَلِكِ وهُوَ يَرْتَعِدُ مِنَ الخَوفِ، فَبادَرَهُ المَلِكُ قائِلًا: «إِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ مَعْرِفَةَ عُمْري سَأَقْطَعُ رَأْسَكَ في التَّوِّ واللَّحْظَةِ..»

فَكَّرَ العَرّافُ ماذا يَفْعَلُ في هَذِهِ الوَرْطَةِ، لا أَحَدَ يَسْتَطيعُ أَنْ يَعْرِفَ العُمْرَ إلا الخالِقُ عَزَّ وجَلَّ وَحْدَهُ ولَكِنْ يَجبُ أَنْ يُنْقِذَ حَياتَهُ: «أَسْتَطيعُ أَنْ أَعْرِفَ عَدَدَ سَنَواتِ عُمْرِكَ يا مَوْلاي، فَهيَ تُماثِلُ عَدَدَ شَعَراتِ رَأْسِكَ، إذا سَمَحْتَ لي بِعَدِّها، أَقولُ لَكَ كَمْ سَنَةً تَحْيا، فَلْنَبْدَأْ فَوْرًا بِالعَدِّ.»

كانَ المَلِكُ يَلْبَسُ تاجًا مِنَ الذَّهَبِ الخالِصِ يُغَطّي رَأْسَهُ كُلَّهُ وعِنْدَما خَلَعَهُ فوجِئَ الجَميعُ أَنَّ رَأْسَهُ أَصْلَعُ لَيْسَ بِهِ شَعْرَةٌ واحِدَةٌ. أَحَسَّ العَرّافُ بِالخَجَلِ، وقالَ لِلْمَلِكِ آمِلًا أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُ: «عَفْوَكَ، يا مَوْلاي، لَنْ أَسْتَطيعَ مَعْرِفَةَ عُمْرِكَ.»

احْمَرَّ وَجْهُ المَلِكَ غَضَبًا وصاحَ: «يا سَيّاف، اقْطَعْ رَقَبَتَهُ.»

وجاءَ العَرّافُ الثّاني وَدَخَلَ عَلى المَلِكِ فَبادَرَهُ قائِلًا: «هَلْ تَسْتَطيعُ مَعْرِفَةَ عُمْري، أَوْ أَقْطَعُ رَقَبَتَكَ؟»

«سَأَعْرِفُ، يا مَوْلاي، إذا اسْتَيْقَظْتَ قَبْلَ الفَجْرِ، وكانَتِ السَّماءُ صافِيَةً فَتَبْدَأُ بِعَدِّ النُّجومِ، سَتَعُدُّ وتَعُدُّ إلى أَنْ تَتْعَبَ، وعِنْدَما تَتْعَبُ سَتَتَوَقَّفُ عَنِ العَدِّ، وسَيَكونُ عَدَدُ النُّجومِ الَّذي تَوَقَّفْتَ عِنْدَهُ هُوَ سَنواتِ عُمْرِكَ.»

«حَسَنًا.. سَنَتَقابَلُ عِنْدَ الفَجْرِ.»

اسْتَيْقَظَ المَلِكُ والعَرّافُ والحاشِيَةُ قَبْلَ الفَجْرِ وخَرَجوا إِلى شُرْفَةِ القَصْرِ، ولَكِنْ كانَتِ السَّماءُ مُلَبَّدَةً بِالغُيومِ وتُوشِكُ أَنْ تُمْطِرَ. غَضِبَ المَلِكُ غَضَبًا شَديدًا ونَظَرَ إِلى العَرّافِ في ثَوْرَةٍ، فَقالُ لَهُ هَذا الأَخيرُ وهُوَ يَرْتَعِدُ هَلَعًا: «لا تَغْضَبْ، يا مَوْلاي، غَدًا فَجْرٌ جَديدٌ، سَتكونُ السَّماءُ صافِيَةً بِإِذْنِ اللهِ، فَلْتُمْهِلْني إِلى الغَدِ.»

«حَسَنًا إِلى الغَدِ إذًا.»

«اسْتَيْقَظَ القَصْرُ كُلُّهُ قَبْلَ طُلوعِ الفَجْرِ، وخَرَجَ المَلِكُ والحاشِيَةُ والعَرّافُ إلى الشُّرْفَةِ، وكانَتِ السَّماءُ صافِيَةً، وبَدَأَ المَلِكُ يَعُدُّ النُّجومَ، ولمّا كانَ مُجْهَدًا مُتْعَبًا مِنْ طولِ التَّفْكيرِ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُواصِلَ العَدَّ طَويلًا. كانَ يُحاوِلُ جاهِدًا الاسْتِمْرارَ في العَدِّ حَتّى يَطولَ عُمْرُهُ، ولَكِنَّهُ وَصَلَ بِصُعوبَةٍ إلى رَقْمِ أَرْبَعينَ، فَقَدْ كانَ مُجْهَدًا مِنْ طولِ السَّهَرِ في الأَيّامِ الماضِيَةِ وهُوَ عُمْرُهُ خَمْسَةٌ وأَرْبَعونَ عامًا، أَيْ كانَ مِنَ المَفْروضِ أَنْ يَموتَ مُنْذُ خَمْسِ سَنَواتٍ مَضَتْ.»

غَضِبَ المَلِكُ وطَلَبَ مِنَ السَّيّافِ قَطْعَ رَأْسِ العَرّافِ الثّاني.

وجاءَ العَرّافُ الثّالِثُ، ودَخَلَ عَلى المَلِكِ وبادَرَهُ بِالسَّلامِ والتَّحِيَّةِ ثُمَّ قالَ لَهُ: «مَوْلاي، أَسْتَطيعُ أَنْ أَعْرِفَ عُمْرَكَ مِنْ خُطوطِ كَفِّ اليَدِ. أَعْطِني كَفَّ يَدِكَ اليُمْنى ولا تَجْعَلْ أَحَدًا يَدْخُلُ عَلَيْنا.»

صاحَ المَلِكُ: «عَلَيْكُمُ الخُروجَ مِنَ القاعَةِ فَوْرًا.»

وجَلَسَ المَلِكُ، وَاقْتَرَبَ العَرّافُ مِنْهُ مُمْسِكًا بِيَدِهِ اليُمْنى، ثَمَ بَدَأَ يَتَظاهَرُ بِقِراءَةِ طالِعِ المَلِكِ:

«سَتكونُ حَياتُكَ مَديدَةً، وعُمْرُكَ طَويلًا، يا مَوْلاي، وسَتَعيشُ فَوْقَ المِائَةِ عام وسَتَنْعَمُ بِالخَيراتِ وسَتكونُ حَياتُكَ سَعيدَةً، وَتُزَوِّجُ أَوْلادَكَ جَميعًا، ويولَدُ لَكَ الأَحْفادُ، وتَراهُمْ حَوْلَكَ يَكْبَرونَ، وسَيَعْلو شَأْنُكَ، ويَزْدَهِرُ مُلْكُكَ... و... و...»

اِبْتَسَمَ المَلِكُ واتَّسَعَتِ ابْتِسامَتُهُ وَقالَ لِلْعَرّافِ: «يَبْدو أَنَّكَ عَرّافٌ ماهِرٌ. سَأُعْطيكَ المُكافَأَةَ المَوْعودَةَ، وَزْنَكَ ذَهَبًا وفِضَّةً كَما وَعَدْتُ..»

أَخَذَ العَرّافُ المُكافَأَةَ سَعيدًا مَسْرورًا وعادَ إلى مَنْزِلِهِ وهُوَ يَكادُ يَطيرُ مِنَ السَّعادَةِ.

وعَمَّتِ الأَفْراحُ البِلادَ، وَعُلِّقَتِ الزّيناتُ، وأَقامَ المَلِكُ احْتِفالًا كَبيرًا. ولأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ

يَضْحَكُ وَيَبْتَسِمُ وَيَأْكُلُ، والنّاسُ يُغَنّونَ وَيَرْقُصونَ، وَالكُلُّ سَعيدٌ مُبْتَهِجٌ. وعِنْدَما انْتَهى الاحْتِفالُ دَخَلَ المَلِكُ سَريرَهُ لِيَنامَ لأَوَّلِ مَرَّةٍ وهُوَ مُطْمَئِنٌّ سَعيدٌ، ومُرْتاحُ البالِ، وقَريرُ العَيْنِ، فَقَدِ انْزاحَ الهَمُّ الَّذي كانَ يَشْغَلُهُ واطْمَأَنَّ قَلْبُهُ. ومَرَّتِ الأَيّامُ وَالسَّعادَةُ تَمْلأُ القَصْرَ، وكَبِرَ الأَبْناءُ، وتَزَوَّجَتِ البَناتُ.

وذاتَ يَوْمٍ، اسْتَيْقَظَ المَلِكُ وهُوَ يَشْعُرُ بِالأَلَمِ في جَسَدِهِ ورَأْسِهِ ويَشْعُرُ بِالدُّوارِ والتَّعَبِ. وجاءَ الأَطِبّاءُ، ولَكِنْ في هَذِهِ المَرَّةِ كانَ المَلِكُ بِالفِعْلِ مَريضًا مَرَضًا عُضالًا أَفْقَدَهُ القُدْرَةَ عَلى الحَرَكَةِ. ولَمّا اشْتَدَّ عَلَيْهِ المَرَضُ طَلَبَ العَرّافَ الَّذي تَنَبَّأَ لَهُ بِالسَّعادَةِ والعُمْرِ المَديدِ. ولما حَضَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ بادَرَهُ المَلِكُ: «قُلْ لي بِاللهِ عَلَيْكَ ماذا سَيَكونُ حالي؟»

أَجابَهُ العَرّافُ: «لَقَدْ كُنْتَ، يا مَوْلايَ، في صِحَّةٍ جَيِّدَةٍ، لا يَنْقُصُكَ شَيْءٌ، لَدَيْكَ المالُ والبَنونَ والبَناتُ والزَّوْجَةُ الصّالِحَةُ، ولَكِنْ بِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ أَخَذْتَ

تَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ يُكَدِّرُكَ، ويَقْضي على سَعادَتِكَ، ولَمْ تَتْرُكْ أَمْرَكَ للهِ. والآنَ أَنْتَ مَريضٌ بِالفِعْلِ لا تَسْتَطيعُ الحَرَكَةَ، فَتوَكَّلْ عَلى اللهِ وفَوِّضْ أَمْرَكَ لَهُ، يا مَوْلايَ، واعْتَبِرْ بِالقَوْلِ المَأْثورِ «لَوِ اطَّلَعْتُمْ عَلى الغَيْبِ لارْتَضَيْتُمُ الواقِعَ»، فَلا تَشْغَلْ بالَكَ بالغَيْبِ، وعِشْ ما تَبَقّى لَكَ مِنْ حَياةٍ سَعيدًا.»

بَعْدَ انْصِرافِ العَرّاف، فَكَّرَ المَلِكُ في حَديثِهِ، ووَجَدَ أَنَّهُ عَلى حَقٍّ. ورَغْمَ أَنَّهُ قَضى ما تَبَقّى لَهُ مِنْ عُمْرٍ لا يَسْتَطيعُ الحَرَكَةَ إلا أَنَّهُ كانَ سَعيدًا راضِيًا، يُفَكِّرُ فيما أَعْطاهُ اللهُ مِنْ نِعَمٍ وما مَيَّزَهُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ النّاسِ مِنْ مالٍ وأَبْناءٍ وخَيْراتٍ لا تُعَدُّ ولا تُحْصى، فَعاشَ راضيًا قَريرَ العَيْنِ لا يَهْتَمُّ بِكَمْ سَيَعيشُ مِنَ السَّنَواتِ ولا إِلى أَيِّ مَدًى يَمْتَدُّ بِهِ العُمْرُ، ولَكِنَّهُ عاشَ سَعيدًا هانِئًا.

مَعْروف ومَتْلوف

كانا صَديقَيْنِ مُنْذُ الطُّفولَةِ، تَعَلَّما في مَدْرَسَةٍ واحِدَةٍ وسَكَنا في شارِعٍ واحِدٍ. كَبِرا مَعًا حَتّى صارا شابَّيْنِ جَمَعَتْ بَيْنَهُما الصَّداقَةُ الحَميمَةُ فلا يَكادانِ يَفْتَرِقانِ.

«مَتْلوف» شابٌّ ثَرِيٌّ، وَرِثَ عَنْ أَبيهِ أَمْوالًا طائِلَةً، ولَكِنَّهُ مُتَهَوِّرٌ مُتَسَرِّعٌ لا يُحِبُّ العَمَلَ، ويَوَدُّ أَنْ يَعيشَ حَياةً رَغْدَةً دونَ تَعَبٍ، لا يَعْمَلُ حسابَ الغَدِ، يُنْفِقُ ما في جَيْبِهِ بِبَذَخٍ ولا يَدَّخِرُ شَيْئًا لِلْمُسْتَقْبَلِ.

و«مَعْروف» شابٌّ فَقيرٌ ولَكِنَّهُ عاقِلٌ رَزينٌ يُحِبُّ العَمَلَ والنِّظامَ، يُفَكِّرُ قَبْلَ الإقْدامِ عَلى أَيَّةِ خُطْوَةٍ ويَعْمَلُ لِلْمُسْتَقْبَلِ أَلْفَ حِسابٍ. وَرَغْمَ اخْتِلافِهِما في الطِّباعِ فإِنَّهُما كانا يُحِبّانِ بَعْضَهُما بَعْضًا، ويَعيشانِ كَأَخَوَيْنِ، حَتّى ظَنَّ النّاسُ أَنَّهُما مِنْ أَبٍ واحِدٍ وأُمٍّ واحِدَةٍ.

«مَتْلوف» لَدَيْهِ المالُ والثَّرْوَةُ، و«مَعْروف» لَدَيْهِ الرَّأْيُ السَّديدُ والعَقْلُ الرَّشيدُ.

وكانَ «مَتْلوف» لا يَعْمَلُ، ويَقْضي يَوْمَهُ في كَسَلٍ وتَراخٍ، مُعْتَمِدًا عَلى ثَرْوَتِهِ ومالِهِ، فَكانَتْ حَياتُهُ فارِغَةً بِلا هَدَفٍ. وكانَ يُكْثِرُ مِنَ الخُروجِ والسَّهَرِ خارِجَ المَنْزِلِ. وكَثيرًا ما نَصَحَهُ صَديقُهُ «مَعْروف» ولَكِنْ بِلا فائِدَةٍ.

وذاتَ لَيْلَةٍ، كانَ «مَتْلوف» خارِجَ بَيْتِهِ كَعادَتِهِ فَتَسَلَّلَ اللُّصوصُ إلى مَنْزِلِهِ وسَرَقوا كُلَّ ما بِهِ مِنْ نُقودٍ وحُلِيٍّ ولَمْ يَتْرُكوا وَراءهُمْ شَيْئًا ذا قيمَةٍ.

وعادَ «مَتْلوف» إِلى المَنْزِلِ واكْتَشَفَ السَّرِقَةَ فَحَزِنَ حُزْنًا شَديدًا؛ فَقَدْ ضاعَ مالُهُ وتَبَدَّدَتْ ثَرْوَتُهُ. ولَكِنَ بَدَلًا مِنْ مُحاوَلَةِ الحُصولِ على عَمَلٍ يُعَوِّضُ بِهِ خَسارَتَهُ، باعَ مَنْزِلَهُ، وأَنْفَقَ ثَمَنَهُ كُلَّهُ حَتّى اسْتَدانَ وَتَراكَمَتْ عَلَيْهِ الدُّيونُ، فَلَمْ يَجِدْ أَمامَهُ سِوى صَديقِ عُمْرِهِ «مَعْروف» لِيستَضيفَهُ في مَنْزِلِهِ ويَقْتَسِمَ مَعَهُ لُقْمَتَهُ ونُقودَهُ القَليلَةَ الَّتي يَحْصُلُ عَلَيْها مِنْ عَمَلِهِ المُتَواضِعِ.

ظَلَّ «مَتْلوف» عَلى حالِهِ في مَنْزِلِ صَديقِهِ، لا يَخْجَلُ مِنَ الجُلوسِ بِلا عَمَلٍ ويَتْرُكُ صَديقَهُ يُنْفِقُ عَلَيْهِ رَغْمَ قِلَّةِ مَوارِدِهِ مَعَ كَثْرَةِ مَطالِبِهِ.

حاوَلَ «مَعْروف» إِقْناعَ «مَتْلوف» بِالعَمَلِ دونَ جَدْوى، ولَكِنَّهُ كانَ كَثيرَ المَطالِبِ، أَنانيًّا إِلى أَقْصى حَدٍّ يَطْلُبُ دونَ تَوَقُّفٍ ودونَ مُراعاةٍ لِظُروفِ صَديقِهِ أَوِ الخَجَلِ مِنْهُ، بَلِ الأَدْهى مِنْ ذَلِكَ، كانَ يَمُدُّ يَدَهُ ويَسْرِقُ نُقودَ صَديقِ عُمْرِهِ لِيُنْفِقَها عَلى الحَياةِ الرَّغْدَةِ الَّتي تَعَوَّدَ عَلَيْها، بَلْ لَمْ يَكْتَفِ بِذَلِكَ.

وذاتَ لَيْلَةٍ، تَسَلَّلَ «مَتْلوف» مِنَ الفِراشِ إِلى غُرْفَةِ صَديقِهِ وَفَتَحَ دولابَ المَلابِسِ، وبَدَأَ يَبْحَثُ عَنِ النُّقودِ الَّتي رَأَى صَديقَهُ يَضَعُها بداخِلِه، ولَكِنْ فَجْأَةً، وَقَعَتْ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ عُلْبَةٌ مَعْدِنيَّةٌ كانَتْ بِداخِلِ الدُّولابِ فَأَحْدَثَتْ ضَجيجًا أَيْقَظَ صَديقَهُ الَّذي ضَبَطَهُ مُتَلَبِّسًا بِالسَّرِقَةِ.

حَزِنَ «مَعْروف» كَثيرًا مِنْ فِعْلَةِ «مَتْلوف» وقالَ لَهُ:

«أَهَكَذا تَرُدُّ المَعْروفَ، يا «مَتْلوف»؟ أَيُمْكِنُ أَنْ يُصْبِحَ المَعْروفُ مَتْلوفًا؟ هَذا فِراقُ بَيْني وَبَيْنَكَ، لا أُريدُ أَنْ أَرى وَجْهَكَ بَعْدَ اليَوْمِ. أُغْرُبْ عَنْ وَجْهي، يا خائِنُ.»

خَرَجَ «مَتْلوف» في ظَلامِ اللَّيْلِ يَبْحَثُ عَنْ مَكانٍ يُؤْويهِ، فَوَجَدَ شَجَرَةً كَبيرةً نامَ تَحْتَها. وفي الصَّباحِ، شَعَرَ بِالجوعِ الشَّديدِ، فَقالَ لِنَفْسِهِ:

«ماذا أَفْعَلُ وَلَمْ يَعُدْ لي صاحِبٌ ولا سَنَدٌ، لَمْ يَعُدْ لي مَكانٌ يَحْميني مِنْ بَرْدِ اللَّيْلِ، وَلا أَجِدُ ما أَسُدُّ بِهِ جوعي. ماذا أَفْعَلُ ولَمْ أَتَعَلَّمْ صَنْعَةً ولا مِهْنَةً؟»

وبَيْنَما هُوَ يُفَكِّرُ سَمِعَ صَوْتَ رَجُلٍ يُنادي عَلَيْهِ فالْتَفَتَ نَحْوَهُ وقالَ لَهُ: «ماذا تُريدُ؟ اتْرُكْني في حالي.»

«أُريدُ فَقَطْ أَنْ أَسْأَلَكَ سُؤالًا واحِدًا، أَلَمْ تَرَ ثُعْبانًا في هَذا المَكانِ؟»

«ثُعْبانًا! أَتوجَدُ ثَعابينُ هُنا؟ ثُعْبانٌ.. يا سَتّارُ!»

«لا تَخَفْ، إِنَّهُ ثُعْباني الَّذي يَعْمَلُ مَعي، فَأَنا حاوٍ، أَعيشُ مِنَ الأَلْعابِ الَّتي أُقَدِّمُها لِتَسْلِيَةِ النّاسِ مُعْتَمِدًا

عَلى هَذا الثُّعْبانِ.»

«لَمْ أَرَ شَيْئًا هُنا. اذْهَبْ لِلْبَحْثِ عَنْهُ في مَكانٍ آخَرَ، واتْرُكْني لِشَأْني بِاللهِ عَلَيْكَ.»

اِنْصَرفَ الحاوي، وبَعْدَ دَقائِقَ قَليلَةٍ رَأى «مَتْلوف» ثُعْبانًا هائِلًا مُقْبِلًا عَلَيْهِ، فارْتَعَدَ خائِفًا وحاوَلَ الهَرَبَ، ولَكِنَّهُ لِدَهْشَتِهِ وَجَدَ الثُّعْبانَ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ قائِلًا:

«لا تَخْشَ شَيْئًا، لَنْ أُصيبَكَ بِأَذًى ولَكِنْ أَرْجوكَ أَبْعِدْ عَنّي هذا الحاوي، لَقَدْ سَئِمْتُ العَمَلَ مَعَهُ، أَخْفِني وَسَأَكونُ لَكَ شاكِرًا، بَلْ سَأُساعِدُكَ عَلى تَحْقيقِ ما تُريدُ مَهْما يَكُنْ.»

فَفَكَّرَ «مَتْلوف» طامِعًا فيما سَوْفَ سَيُساعِدُهُ الثُّعْبانُ عَلى تَحْقيقِهِ جَزاءَ مَعْروفِهِ، ثُمَّ سَأَلَهُ: «أَيْنَ أُخْفيكَ؟»

«سَأَدْخُلُ تَحْتَ ثِيابِكَ وأَلْتَفُّ حَوْلَ بَطْنِكَ حَتّى يَرْحَلَ الحاوي بَعيدًا.»

«حَسَنًا.»

دَخَلَ الثُّعْبانُ تَحْتَ ثِيابِ «مَتْلوف» والْتَفَّ حَوْلَ بَطْنِهِ، فَوَقَفَ ساكِنًا في مَكانِهِ. وبَعْدَ قَليلٍ، عادَ الحاوي وسَأَلَ «مَتْلوف»:

«أَمُتَأَكِّدٌ أَنَّكَ لَمْ تَرَ الثُّعْبانَ؟ لَقَدْ بَحَثْتُ عَنْهُ في كُلِّ مَكانٍ.»

«قُلْتُ لَكَ دَعْني وَشَأْني، لَمَ أَرَ شَيْئًا قَطُّ.»

اِنْصَرَفَ الحاوي، ولما تَأَكَّدَ «مَتْلوف» أَنَّهُ ابْتَعَدَ عَنِ المَكانِ قالَ لِلثُّعْبانِ: «الآنَ أَنْتَ في مَأْمَنٍ.. انْزِلْ واتْرُكْني.»

قال الثُّعبانُ: «كَيْفَ أَتْرُكُكَ وأَنا جَوْعانُ؟

سَأَخْنُقُكَ وأَمْتَصُّ دَمَكَ.»

قالَ «مَتْلوف» مُتسائلًا: «أَهَكَذا تَرُدُّ المَعْروفَ؟ أَيُصْبِحُ المَعْروفُ مَتْلوفًا؟»

أَجابَهُ الثُّعْبانُ: «إذا كانَ الصَّديقُ يَخونُ صَديقَهُ،

ويُصْبِحُ ما يُسْديهِ لَهُ مِنْ مَعْروفٍ مَتْلوفًا، أَلا تُريدُ أَنْ أَخونَكَ وأَنا لا أَعْرِفُكَ ولا تَجْمَعُنا صَداقَةٌ ولا زَمالَةٌ ولا عِشْرَةُ عُمْرٍ؟»

وقَبْلَ أَنْ يُفَكِّرَ «مَتْلوف» في مَعْنى هذا الكَلامِ، تَذَكَّرَ صَديقَهُ «مَعْروف» وما صَنَعَهُ هُوَ بِهِ مِنْ خِيانَةٍ رَدًّا على «مَعْروف» صاحِبِهِ.

كانَ الثُّعْبانُ قَدَ بَدَأَ يَعْتَصِرُهُ، وأَدْرَكَ «مَتْلوف» أَنَّ المَوْتَ قادِمٌ لا مَحالَةَ، فَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وغابَ عَنِ الوَعْيِ.

أَفاقَ «مَتْلوف» لِيَجِدَ أَمامَهُ آخِرَ شَيْءٍ كانَ يَتَوَقَّعُهُ. وَجَدَ نَفْسَهُ حَيًّا لَمْ يَمُتْ وأَمامَهُ صَديقُهُ «مَعْروف» مُمْسِكًا بِفَأْسٍ، والثُّعْبانُ مَقْتولٌ تَحْتَ قَدَمَيْهِ، فَصاحَ في دَهْشَةٍ:

«ماذا حَدَثَ؟ كَيْفَ قَتَلْتَهُ؟ كَيْفَ عَرَفْتَ مَكاني؟»

قالَ مَعْروف: «بَعْدَ خُروجِكَ مِنَ المَنْزِلِ في ظَلامِ اللَّيْلِ، أَدْرَكْتُ أَنَّنا لا يُمْكِنُ أَنْ نَفْتَرِقَ مَهْما يَحْدُثُ،

فَما بَيْنَنا رِباطٌ قَوِيٌّ، وعُمْرٌ بِأَكْمَلِهِ، فَذَهَبْتُ لِلْبَحْثِ عَنْكَ في كُلِّ مَكانٍ، حَتّى اهْتَدَيْتُ إِلى مَكانِكَ في الوَقْتِ المُناسِبِ.»

قالَ مَتْلوف: «لَقَدْ أَنْقَذْتَ حَياتي، وأَسْدَيْتَ لي مَعْروفًا لِلْمَرَّةِ الثّانِيَةِ رَغْمَ كُلِّ ما فَعَلْتُهُ مَعَكَ.»

قالَ مَعْروف: «قَدْ يُصْبِحُ المَعْروفُ مَتْلوفًا، ولَكِنَّ صَداقَةَ العُمْرِ والعِشْرَةَ لا يُمْكِنُ أَنْ تَضيعا هَباءً.»

قالَ مَتْلوف: «سَيُصْبِحُ «مَتْلوف» مَعْروفًا، سَأُحاوِلُ أَنْ أَفْعَلَ مِثْلَكَ يا «مَعْروف»، سَأَعْمَلُ وأَجْتَهِدُ. سَيُصْبِحُ «مَتْلوف» مَعْروفًا آخَرَ، ولَنْ يُصْبِحَ المَعْروفُ مَتْلوفًا أَبَدًا.»

والآنَ، صَديقي العَزيزَ، الإنْسانُ يُمْكِنُ أَنْ يُخْطِئَ ولَكِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ خَطَئِهِ وعَلَيْهِ أَيْضًا أَنْ يُسامِحَ ويَغْفِرَ، فاللهُ يُسامِحُ ويَغْفِرُ الذُّنوبَ؛ أَلا تُريدُ لِلْعَبْدِ أَنْ يَصْفَحَ فَيَنالَ رِضا اللهِ وثَوابَهُ؟

أَلْوان

كانَ يَتَلَوَّنُ كالحِرْباءِ، فَهُوَ تارَةً يَكون أَحْمَرَ اللَّوْنِ وتارَةً يَكونُ أَزْرَقَ أَوْ أَخْضَرَ أَوْ أَصْفَرَ اللَّوْنِ، وأَحْيانًا يَكونُ أَسْوَدَ اللَّوْنِ أَوِ رَمادِيًّا. كَيْفَ يَتَلَوَّنُ الإِنْسانُ؟ وكَيْفَ يَحْدُثُ هَذا؟ ومَتى بَدَأَ هَذا يَحْدُثُ لَهُ؟

كانَتِ المَرَّةُ الأولى وهُوَ طِفْلٌ صَغيرٌ في العاشِرَةِ مِنْ عُمْرِهِ وكانَ يُحِبُّ الفاكِهَةَ وخاصَّةً البِطّيخَ، وعِنْدَما اشْتَرَتْ والِدَتُهُ في ذَلِكَ اليَوْمِ ثَمَرَةَ بِطّيخٍ حُلْوَةَ الطَّعْمِ شَديدَةَ الاحْمِرارِ أَخَذَ يَأْكُلُ مِنْها ويَأْكُلُ ويَأْكُلُ وعَنَّفَتْهُ والِدَتُهُ وطَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يَتْرُكَ الآخَرينَ يَتَذَوَّقونَ طَعْمَها مِثْلَهُ، وأَخْفَتْ نَصيبَ والِدِهِ وأَخيهِ، ولَكِنَّهُ عَثَرَ عَلى ما تَبَقّى وأَكَلَهَ كُلَّهُ. وبَدَلًا مِنْ أَنْ يَشْعُرَ بِتَعَبٍ أَوْ أَلَمٍ في بَطْنِهِ تَحوَّل لَوْنُهُ إلى اللَّوْنِ الأَحْمَرِ؛ نَعَمْ إلى اللَّوْنِ الأَحْمَرِ الَّذي صَبَغَهُ مِنْ رَأْسِهِ إلى قَدَمَيْهِ. وعِنْدَما نَظَرَ

فِي المِرآةِ رَأى العَجَبَ، فكُلُّ شَيْءٍ صارَ أَحْمَرَ اللَّوْنِ.. وَجْهُهُ وعَيْناهُ، وشَعْرُهُ، وبَنْطَلونُهُ وقَميصُهُ، وحَتّى الحِذاءُ.. كُلُّ شيءٍ أَحْمَرُ بِلَوْنِ البِطّيخِ.

سَيُفْتَضَحُ أَمْرُهُ إذَنْ وسَيَعْرِفُ الجَميعُ أَنَّهُ أَكَلَ نَصيبَ والِدِهِ وأَخيهِ. عَلَيْهِ إِذَنْ أَنْ يَخْتَفِيَ بَعيدًا عَنِ الأنْظارِ، وبَحَثَ عَنْ مَكانٍ ووَجَدَهُ في الحَديقَةِ المُجاوِرَةِ لِمَنْزِلِهِ وَراءَ حَوْضِ الزُّهورِ وخَلْفَ شَجَرَةٍ عَتيقَةٍ كَبيرَةٍ اسْتَطاعَتْ فُروعُها وأَوْراقُها إِخْفاءَهُ عَنِ الأَنْظارِ حَتّى عادَ لِلَوْنِهِ الطَّبيعِيِّ.

أَمّا المَرَّةُ الثّانِيَةُ فَكانَتْ في حَوالي الرّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ، وحَدَثَ ذَلِكَ في الفَصْلِ الدِّراسِيِّ في مادَّةِ الحِسابِ الَّتي كانَ يَكْرَهُها وَلا يَفْهَمُها، وَكانَ مَوْعِدُ امْتِحانِ آخِرِ العامِ قَدِ اقْتَرَبَ، وهُوَ لَمْ يُتابِعِ الدَّرْسَ، ولَيْسَ لَدَيْهِ ما يَسْتَذْكِرُ مِنْهِ دُروسَهُ، في حين أَنَّ صَديقَهُ «عادِل» الأَوَّلَ عَلى الفَصْلِ لَدَيْهِ كَشْكولٌ أَزْرَقُ كَبيرٌ بِهِ حُلولُ جَميعِ المَسائِلِ الحِسابِيَّةِ وبِهِ شَرْحُ المُدَرِّسِ.

آهِ لَوْ كانَ لَدَيْهِ مِثْلُ هَذا الكَشْكولِ سَيُساعِدُهُ حَتْمًا عَلى الاسْتِذْكارِ، ولَكِنْ كَيْفِ يَأْخُذُهُ مِنْ «عادِل» وخاصَّةً أَنَّ الامْتِحانَ عَلى الأَبْوابِ. وانْتَظَرَ حَتَّى خَرَجَ الطَّلَبَةُ مِنَ الفَصْلِ في وَقْتِ الرّاحَةِ وأَخَذَ الكَشْكولَ، ولَكِنَّهُ شَعَرَ بِأَنَّ لَوْنَهُ يَتَغَيَّرُ ويَصيرُ أَزْرَق اللَّوْنِ، فَذَهَبَ إِلَى الحَمّامِ وَنَظَرَ في المِرْآةِ فَوَجَدَ نَفْسَهُ أَزْرَق بِلَوْنِ كَشْكولِ «عادِل».

خَرَجَ مُسْرِعًا مِنَ الحَمّام وبَدَلًا مِنَ الذَّهابِ إِلى الفَصْلِ ذَهَبَ إلى الحَديقَةِ لِيَتَوارى خَلْفَ الشَّجَرَةِ العَتيقَةِ الَّتي لَمْ تَعُدْ تُخْفيه تمامًا لِأَنَّ جِسْمَهُ قَدْ نما بَعْضَ الشَّيءِ. وَلَكِنَّهُ كان يَشْعُرُ بِالأَمانِ في هَذا المَكانِ بَعيدًا عَنْ أَعْيُنِ النّاسِ. وظَلَّ في مَكانِهِ حَتّى المَساءِ عِنْدَما شَعَرَ بِأَنَّهُ عادَ إلى لَوْنِهِ الطَّبيعِيِّ. وَلَمّا عادَ إلى المَنْزِلِ وَجَدَ الجَميعَ يَبْحَثونَ عَنْهُ في كُلِّ مَكانٍ. وَرَغْمَ ما حَدَثَ نَجَحَ «عادِل» في مادَّةِ الحِسابِ ورَسَبَ هُوَ وقَضى فَصْلَ الصَّيْفِ في مُراجَعَةِ دُروسِ الحِسابِ.

أَمّا المَرَّةُ الثّالِثَةُ فَكانَتْ وهُوَ شابٌّ وَسيمٌ يافِعٌ في كُلِّيَّةِ الحُقوقِ، وكانَ يَرى بَعْضَ زُملائِهِ الطَّلَبَةِ يَرْتَدي ثِيابًا فاخِرَةً وبَعْضَهُمْ لَدَيْهِ سَيّارَةٌ يَذْهَبُ بِها إلى الجامِعَةِ، ويَرى البَعْضَ الآخَرَ يَمْلِكُ نُقودًا كَثيرَةً. أَمّا هُوَ فَلَمْ يُغَيِّرْ مَلابِسَهُ ولَمْ يَشْتَرِ مَلابِسَ أُخْرى جَديدَةً مُنْذُ فَتْرَةٍ، وظَلَّ يَذْهَبُ إلى الكُلِّيَّةِ عَلى قَدَمَيْهِ، وتَكْفي نُقودُهُ بِالكادِ مَصْروفاتِ الدِّراسَةِ. وذاتَ يَوْمٍ حَضَرَ زَميلُهُ «أَشْرَف» إلى الكُلِّيَّةِ مُرْتَدِيًا سُتْرَةً سَوْداءَ جَميلَةً حازَتْ إِعْجابَ الجَميعِ، وكانَ يَذْكُرُ لِكُلِّ مَنْ يُبدي إِعْجابَهُ بِهَذِهِ السُّتْرَةِ أَنَّهُ دَفَعَ ثَمَنَها مِائَتَيْ جُنَيْهٍ، وأَنَّهُ لا يوجَدُ مِثْلُها حَيْثُ إِنَّهُ قَدْ تَمَّ اسْتيرادُها مِن الخارِجِ.

وانْتَظَرَ اللَّحْظَةَ المُناسِبَةَ عِنْدَما خَلَعَ «أَشْرَف» سُتْرَتَهُ ووَضَعَها بجانبه ثُمَّ ذَهَبَ لِيُلَبّيَ نِداءَ أَحَدِ الأَصْدقاءِ وعِنْدَ عَوْدَتِهِ كانَتِ السُّتْرَةُ قَد اخْتَفَتْ. أَمّا هُوَ فَكانَ أَسْوَدَ اللَّوْنِ، ولَمْ تَعُدِ الشَّجَرَةُ تُخْفيهِ أَوْ تَتَسَتَّرُ عَلَيْهِ، ولَكِنَّهُ عادَ إلى لَوْنِهِ الطَّبيعيِّ قَبْلَ أَنْ يَراهُ أَحَدٌ مِنْ زُوارّ الحَديقَةِ.

ولَكِنْ هَذِهِ المَرَّةَ كانَ الأَمْرُ مُخْتَلِفًا؛ لأَنَّهُ أَدْرَكَ الحَقيقَةَ، فَقَدْ عَرَفَ أَنَّهُ لا يَتَلَوَّنُ، ولَكِنَّ هَذِهِ الأَلْوانَ يَشْعُرُ بِها ويَراها هُوَ وَحْدَهُ، فَهِيَ في ضَميرِهِ لِشُعورِهِ بِالذَّنْبِ ولا يَراها الآخَرونَ.

وبَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ مُوَظَّفًا مُحْتَرَمًا لَمْ يَتَحَرَّرْ بَعْدُ مِنْ داءِ السَّرِقَةِ، وذَلِكَ لأَنَّهُ لمّا أَرادَ أَنْ يُهْديَ زَوْجَتَهُ هَدِيَّةً قَيِّمَةً بِمُناسَبَةِ عيدِ ميلادِها، ولَمْ تَكُنْ مَعَهُ نُقودٌ كافِيَةٌ لِشرائِها قامَ بِسَرِقَةِ خَزينَةِ الشَّرِكَةِ المَفْتوحَةِ بَعْدَ أَنْ رأَى الصَّرّافَ يَتَحَدَّثُ في الهاتِفِ ويَبْدو مُنْصَرِفًا تَمامًا إلى الحَديثِ، ولَمّا هَمَّ بِالانْصِرافِ رآهُ الصَّرّافُ.. رَآهُ أَخْضَرَ اللَّوْنِ، فَأَرادَ أَنْ يَكْذِبَ.. أَنْ يَنْفِيَ.. أَنْ يَهْرُبَ، ولَكِنَّ لَوْنَهُ كانَ أَخْضَرَ مِثْلَ لَوْنِ أَوْراقِ البَنْكنوتِ، فَما فائِدَةُ النَّفْيِ أَوِ الكَذِبِ أَوِ الهَرَبِ وقَدِ افْتُضِحَ أَمْرُهُ؟ فَقالَ لِلصَّرّافِ وهُوَ يَرْتَجِفُ:

«خُذِ النُّقودَ ولا تَفْضَحْ أَمْري. أَرْجوكَ.»

«أَيَّ نُقودٍ؟»

«النُقودَ الَّتي أَخَذْتُها لِتَوّي مِنَ الخَزينَةِ. لا فائِدَةَ مِنَ الكَذِب، فَلَقَدِ افْتُضِحَ أَمْري، فَلَوْني أَخْضَرُ، أَخْضَرُمِثْلُ أَوْراقِ البَنْكِنوتِ.»

«لا أَفْهَمُ شَيْئًا، فَلَوْنُكَ لَيْسَ أَخْضَرَ.»

«بَل انْظُرْ جَيِّدًا إلى يَدَيّ، وقَدَمَيّ، وشَعْري، وفَمي، ووَجْهي، وجَسَدي، ومَلابِسي- كُلُّ شَيْءٍ أَخْضَرُ.»

«هَذا لَيْسَ صَحيحًا، فَلَوْنُكَ طَبيعيٌّ جِدًّا. أَأَنْتَ مَريضٌ؟ ثُمَّ مَتى أَخَذْتَ هَذِهِ النُّقودَ؟ ولِماذا؟ سَآخُذُها مِنْكَ ولا أَفْضَحُ أَمْرَكَ بِشَرْطِ أَلا تَعودَ إلى السَّرِقَةِ مَرَّةً أُخْرى.»

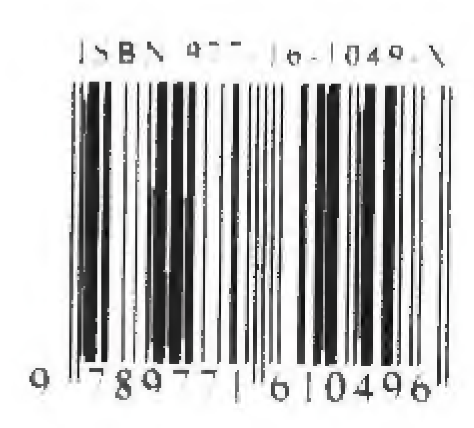
«أعِدُك وأَشْكُرُكَ، فَلَنْ أَعودَ إِلى السَّرِقَةِ أَبَدًا.»

وجَرى إلى زُجاجِ النّافِذَةِ الَّذي يَعْكِسُ صورَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ نَفْسهُ أَخْضرَ اللَّوْنِ، وواجِهَةُ المَحَلاتِ الزُّجاجِيَّةُ في الشّارِعِ لَمْ تَكُنْ تَعْكِسُ لَوْنَهُ الأَخْضَرَ، ومِرآةُ مَنْزِلِهِ لَمْ يَرَ فيها لَوْنًا أَخْضرَ، إِنَّهُ لا يَتَلَوَّنُ.

كانَ شُعورُهُ بِالذَّنْبِ يَجْعَلُهُ يَعْتَقِدُ ذَلِكَ، وقَرَّرَ مُنْذُ هَذِهِ اللَّحْظَةِ أَنْ يَظَلَّ لَوْنُهُ أَبيَضَ.. أَبْيَضَ حَتّى آخِرِ العُمْرِ.

الينابيع تتفجّر من التُّراث العربيّ الأصيل، ومِنَ السِّيرِ الشَّعبيَّةِ الغنيَّةِ، ومِنَ الحِكاياتِ الشَّعبيةِ العَربيَّةِ؛ لتُصوِّرَ نماذجَ مُضيئةً مِن تُراثِنا، وتعرِض قِيمًا مُشرقةً في حياتِنا: تَمزج بين الجِدِّ، والفُكاهةِ في لُغةٍ هادِئةٍ راقيةٍ: لا تعلو فتعوق القارئ وتصدّه ولا تسفُّ فتهبط بذوقِه ومستواه، وإنما تمتّع وجدانَه وقلبه، وتُثري فِكرَه وعقلَه.

الينابيع



مكتبة لبنان ناشرون
زقاق البلاط ص.ب : ٩٢٣٢ - ١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزِّعون في جميع أنحاء العالَم